العولمة

بسم الله الرحمن الرحيم

العولمة

أم عالمية الشريعة الإسلامية

كتبي خاصة بتخصص فقه الأصول
شاورة ثبت رقم ١٩٥٦
ر (٥)

الدكتور محمد عمر الحاجي

دار المكتبي

الطبعة الثانية
1423هـ - 2002 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

من وحي التنزيل

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سبأ : ٢٨] .

صدق الله العظيم

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته أجمعين ، وبعد :

بعد أن أثبتت الوقائع التاريخية إخفاق الاحتلال ـ الغزو ـ العسكري ، فكر المستعمرون بأساليب جديدة ، تحمل الحقد نفسه ، لكنها تستتر بعناوين براقة ، كالمجرم المحترف فبدل أن يعرفه الناس فوراً ، يختفي وراء لباس يلبسه الأطباء ، ليظهر أمام الناس على أنه يحمل الرحمة والشفقة ، لكن واقع الحال يوحي أن المجرم هو المجرم ، سواءً ظهر بمظهره الحقيقي ، أو اختفىٰ وراء لباسٍ آخر!!

والذي زاد الطين بلّة هو الوضع المتدهور للأمة الإسلامية ، حيث أصبحت الأمة الواحدة شعوباً شتى ، ودويلات وإمارات ومشيخات ، بعد أن كانت الأمة هي الأمة السائدة المتصدّرة ، حيث كان خليفتهم هارون الرشيد يخاطب السحابة قائلاً : أمطري أو لا تمطري ، فأنّى أمطرت فسيأتيني خراجك بإذن الله تعالىٰ .

واستطاع المستعمرون أن يقنعوا المسلمين أنكم ضعاف متخلفون لا تملكون من أمركم أي شيء ، وبالتالي ما عليكم إلا السير وراء تلكم الدول الغربية المتقدمة ، وما عليكم إلا أن تربطوا اقتصادكم بعجلة اقتصادهم ، وهكذا سائر أموركم .

لذلك حينما طرحوا فكرة حديثة ، ظاهرها الحداثة والمواكبة العصرية للتقدم ، وما إلى هنالك ، وهي في باطنها تحمل السمّ الزعاف ، أطلقوا شعارات : الكوكبة ، العولمة ، الكونية ، القرية الصغيرة!! وكلها تدور حول مصطلح واحد ملخصه : الهيمنة الغربية الأمريكية على العالم كله ، لجعل الأسواق كلها مفتوحة أمام البضائع الأمريكية ، وليصلوا إلى مرحلة النهب الكامل للثروات والخيرات عند الشعوب النامية والفقيرة .

وللأسف الشديد ، فكثير من أبناء جلدتنا وممن يتكلمون بلغتنا صدّقوا هذا الكلام المعسول ، خاصةً الشباب ، حيث انخدعوا بهذه العناوين البرّاقة ، ونسوا أن وراء ذلك كله استعمار حديث ، لكن هل ذلك يؤدي إلى إسقاطنا؟ أبداً فللإسلام خط بياني يدور مع سنن الإله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] . وهذا الخط متعرج ، ينخفض تارةً ، ويرتفع أخرى ، وهكذا فقد هبط في الماضي إلى درجة أن القرامطة اغتصبوا الحجر الأسود سنوات وسنوات ، وهبط عند الغزو الهمجي من قبل التتار حتى اسودّ نهر الفرات من كثرة الكتب التي ألقيت فيه!! لكن سرعان ما علا ، فما مضى قرن حتى كان المسلمون يدقّون أسوار (فيينا) ، وقد وصل المسلمون إلى جنوب فرنسا وأواسط سويسرة .

كذلك استطاع الصليبيون أن يسقطوا البلاد الإسلامية ، لكن بعد (٩٠) سنة استطاع المسلمون إعادة الأقصى ليُرفع الأذان على المآذن الخرساء ، وتعود كلمة التوحيد إلى المنبر الساكت!!

أجل ، فهناك مبشرات كثيرة توحي بانتشار الدين الإسلامي ، لأنه الدين العالمي الوحيد ، من ذلك ما رواه الإمام أحمد عن تميم الداري قال : سمعت رسول الله يقول : « ليبلُغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ،

ولا يترك الله بيت مَدرٍ ولا وبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين » ولقد بشّر الرسول بأن القسطنطينية ستفتح أمام المسلمين ، وقد تحقق ذلك ، وبشّر بأن (روما) عاصمة إيطاليا سُتفتح ، وسيكون ذلك بإذن الله تعالىٰ ، وقد يكون ذلك بالقلم واللسان لا بالسيف والسنان ـ والله أعلم ـ لذلك مهما حاول الأعداء أن يسقطوا هذا الدين العالمي فإن المسألة :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢ـ٣٣] .

ومن هذا المنطلق ، أحببت أن أقارن بين ما يُطرح في هذه الأيام حول (العولمة) وبين عالمية الإسلام ، لنرى في النهاية ، أن الشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة التي تناسب كل زمان ومكان ، وبالتالي فهي العالمية الحقّة ، أما العولمة فهي الهيمنة الواقعية ، هيمنة القوي على الضعيف ، والغني على الفقير ، لكن ضمن خطط خداعة ، وتسميات ما أنزل الله بها من سلطان ، وإلا فكما حاولوا يوماً ما أن يخدعوا الناس بتغيير اسم (أم الخبائث) من الخمر إلى (مشروبات روحية!!) لينخدع السذّج وتنطلي عليهم الخطط الخبيثة ، لكن :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

[آل عمران : ١٢] .

ويشاء الله سبحانه أن تكون أبواب هذا الكتاب ثلاثاً :

١ـ ومضات من الحديث عن العولمة .

٢ـ عالمية الشريعة الإسلامية .

٣ـ العولمة أم عالمية الإسلام .

وهي ليست إلا محاولات متواضعة ، سائلاً الله سبحانه التوفيق والقبول ، راجياً من جميع القراء الدعاء لي ولجميع المؤمنين ، فالله نسأل ومنه الإجابة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين

* * *

الباب الأول

ومضات من
الحديث عن (العولمة)

- الفصل الأول : نشأتها التاريخية .
- الفصل الثاني : مفهوم العولمة .
- الفصل الثالث : أنواع العولمة .
- الفصل الرابع : أهدافها ، واقعها ، آثارها ، والتحديات الناتجة عنها ! !
- الفصل الخامس : تناقض العولمة مع الهوية ! !

الفصل الأول

نشأتها التاريخية

العولمة : ظاهرة جديدة أو قل : نظام جديد ، تعود جذوره إلى بداية هذا القرن ، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أطلق الأمريكي مارشال مشروعاً سُمي فيما بعد باسمه ، يهدف إلى إعادة إعمار أوربا الغربية ، وإلى إعادة تنظيم العلاقات النقدية ، فظهر صندوق النقد الدولي والبنك الدولي . . .

ثم تطور الأمر أكثر ، لتُترجم الأفكار والنظريات إلى مشاريع على أرض الواقع ، فوضع حجر الأساس للأسواق المشتركة ـ كالسوق الأوربية المشتركة ـ وظهرت مناطق التبادل التجاري ، واتفقت بعض الدول الغربية على إنشاء اتحادات جمركية . . .

كل ذلك كان له هدف بعيد هو تنظيم العلاقات الاقتصادية الدولية ، وظهور فضاء اقتصادي واجتماعي ونقدي قوي ومتماسك ، ليواجه كل التحديات الخارجية ، لكن الواقع أثبت عدم الوصول إلى الهدف المنشود إلا بنسبة ضئيلة ، والسبب في ذلك تسارع التغيرات المهمة في كثيرٍ من المجالات .

فماذا حدث بعد ذلك كله؟

سقط النظام الشيوعي العالمي ، وذلك حين أعلن الرئيس السوفياتي

السابق (ميخائيل غورباتشوف) في عام ١٩٨٥ عن ثورته : (البيروستويكا) على أساس إصلاحات جذرية في ذلك النظام .

ثم أعقب ذلك في عام ١٩٨٩م توحيد الألمانيتين : ألمانيا الغربية الرأسمالية مع ألمانيا الشرقية الاشتراكية ، وذلك عند تهديم حائط برلين الشهير .

ثم أعقب ذلك اجتياح الجيش العراقي للكويت ، نتج عنه تحالف عالمي تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، وكانت حرب الخليج الثانية التي انتهت في شباط ١٩٩١م لتكون النتيجة طرد الجيش العراقي وتحرير الكويت .

لكن الذي كرّس فكرة العولمة لصالح النظام الأمريكي أكثر ، وجعلها المهيمنة على كثير من المجالات العالمية طرح فكرة فتح الأسواق بعضها على بعض ، ليكون الرابح الأقوى هو صاحب الرأسمال الأكثر ، وصاحب الإعلام الأقوى ، وصاحب التكنولوجيات الأحدث ، فكانت (المنظمة العالمية للتجارة) والتي أنشئت ١٩٩٥م .

وهكذا شهدنا في هذه السنوات القليلة الماضية انهيار الأنظمة الاشتراكية في كثير من بلادٍ كانت تنطوي تحت مظلة الاتحاد السوفياتي ، وكانت النتيجة تدعيم الدور الأمريكي ، وانفتاح منظمة حلف الأطلسي الرأسمالي على الدول التي كانت اشتراكية .

كل هذا أدى إلى ظهور ما يسمىٰ (الأحادية القطبية) أي : هيمنة النظام الأمريكي على العالم ، لا لأنه الأحسن ، إنما لأنه أصبح الأوحد ، واستطاع أن يهيمن نتيجة ظروف عالمية مواتية على غالبية الأنظمة ، واستطاع أن يحقق مردوداً اقتصادياً أعلى ، واستطاع الوصول إلى تقدم تكنولوجي متطور أكثر . . .

لكن على الرغم من هذا كله ، نرى على أرض الواقع أن النظام الأمريكي لم يستطع أن (يُأَمْرِك) النظام العالمي ، وقد يعود ذلك لعدة عوامل أهمها :

أن غالبية الدول الأوربية لها خصوصيات ، سواءً كان ذلك في المجال الثقافي أو الأمني أو الاجتماعي أو السياسي أو الفكري ، بل وحتى في الأمور الضريبية المالية .

أما في الرأسماليات الآسيوية فنجد أن ميزاتها تختلف عن الرأسماليات الأمريكية ، حيث إنها لا تعتمد على الفرد ، إنما تعتمد على العائلة ، وبالتالي فهي ليست محررة من القيود ، بل للدولة تدخلات وخطط . . . كل هذا يؤدي إلى فشل العولمة الأمريكية على العالم ، لأنه لا يمكن فرض مشروع عولمة إلا بأخذ الاعتبار ما تمثله اليابان والصين ودول أمريكا اللاتينية ، وهذا ما حدث على أرض الواقع ، فكان سبباً مباشراً لإخفاق الهيمنة الأمريكية على العالم ككل .

* * *

الفصل الثاني

مفهوم العولمة

لا نجد لهذه الكلمة تعريفاً في قواميس اللغة أو السياسة أو الاقتصاد ، وذلك نظراً لحداثتها . ولذلك عندما تُطرح فكرة العولمة لا يقصد بها مفهوم مجرد فقط ، بل يُلتفت إلى عملياتها الأساسية وهي : المنافسة بين القوى العظمى ، والابتكار التكنولوجي ، وانتشار عولمة الإنتاج والتبادل ـ المواضيع الاقتصادية ـ ، والتحديث .

لكن في الحقيقة فإن مفهوم (العولمة) يُعيدنا إلى (العالَم) أي الكون ، وليس إلى (العِلم) ، لذلك أطلق البعض عبارات تدل عليها : كالنظام العالمي الجديد ، وإمبراطورية جديدة ، والقرية الكونية ، وكل ذلك يعني شمول هذا التعبير للأمور الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والاجتماعية ، بل وحتى التقاليد والأعراف لكن مع ذلك كله نجد بعض التعريفات التي تحوم حول المعنىٰ ، مثال ذلك :

يرى (جيمس روزنار) : (وإن كان يبدو مبكراً وضع تعريف كامل وجاهز يلائم التنوع الضخم لهذه الظواهر المتعددة ، فعلى سبيل المثال ، يقيم مفهوم العولمة علاقة بين مستويات متعددة للتحليل ، الاقتصاد ، السياسة ، الثقافة ، الإيديولوجية ، وتشمل إعادة تنظيم الإنتاج ، تداخل الصناعات عبر الحدود ، انتشار أسواق التمويل ، تماثل السلع المستهلكة

لمختلف الدول ، نتائج الصراع بين المجموعات المهاجرة والمجموعات المقيمة .

في ظل ذلك كله فإن مهمة إيجاد صيغة مفردة تصف كل هذه الأنشطة تبدو عملية صعبة ، وحتى لو تم تطوير هذا المفهوم فمن المشكوك فيه ، أن يتم قبوله واستعماله بشكل واسع) .

أي أن (روزنار) لم يعط تعريفاً واضحاً للعولمة ، إنما أفهمنا أننا ما زلنا في المراحل الأولية لهذه الظاهرة ، وهي تجربة لم تكتمل بعد ، بحيث تطالعنا الأيام بالجديد تلو الجديد ! !

لكن هناك محاولات تقترب تارة من المطلوب ، وتبتعد أخرى عنه ، ولنضرب بعض الأمثلة :

العولمة هي : القوى التي لا يمكن السيطرة عليها للأسواق الدولية والشركات المتعددة الجنسية ، التي ليس لها ولاء لأية دولة قومية .

العولمة هي : حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية .

العولمة هي : نظام عالمي جديد يقوم على العقل الألكتروني والثورة المعلوماتية القائمة على المعلومات والإبداع التقني غير المحدود ، دون اعتبار للأنظمة والحضارات والثقافات والقيم ، والحدود الجغرافية والسياسية القائمة في العالم .

العولمة هي : ديناميكية جديدة تبرز داخل العلاقات الدولية من خلال تحقيق درجة عالية من الكثافة والسرعة في عملية انتشار المعلومات والمكتسبات التقنية والعملية للحضارة يتزايد فيها دور العامل الخارجي في تحديد مصير الأطراف الوطنية المكونة لهذه الدائرة المندمجة وبالتالي لهوامشها أيضاً .

العولمة هي : الدخول بسبب الثورة المعلوماتية والتقنية والاقتصادية معاً في طور من التطور الحضاري ليصبح فيه مصير الإنسانية موحداً أو نازعاً للتوحد .

ويرى صادق العظم أن العولمة هي : نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريباً ، إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول ، إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها ، أي أن ظاهرة العولمة التي نشهدها هي بداية عولمة الإنتاج والرأسمال الإنتاجي وقوى الإنتاج الرأسمالية ، وبالتالي علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضاً ، وينشرها في كل مكان مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله ، والعولمة بهذا المعنىٰ هي رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملة على مستوىٰ سطح النمط وظاهره .

فالعولمة عنده هي : حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافىء .

أما الاقتصادي المصري الدكتور عمرو محيي الدين فقد وقف عند تعريفه للعولمة حول كيفية تطور مفهومها ، لذلك قرر : أن النظام الاقتصادي الدولي الجديد لم ينشأ فجأة ، ولكنه نما في أحضان النظام القديم وخرج منه ، وقد بدأت بذوره الأولى في منتصف الستينات ثم بدأت تتضح توجهاته في السبعينات وتسارعت وتائره في الثمانينات ، بحيث اتضحت خطوطه العامة وملامحه الرئيسية مع بداية التسعينات .

وقرر أن النظام الاقتصادي الدولي الجديد يتسم بعدد من الخصائص والسمات الهامة وهي :

١ـ انهيار نظام بريتون وودز (١٩٧١ـ١٩٧٣م) بإعلان الولايات

المتحدة عام ١٩٧١م وقف تحويل الدولار إلى ذهب .

٢ـ عولمة النشاط الإنتاجي .

٣ـ عولمة النشاط المالي واندماج أسواق المال .

٤ـ تغيير هيكل الاقتصاد العالمي وسياسات التنمية .

٥ـ تغيير مراكز القوى العالمية .

إذاً :

هناك تعريفات للعولمة ركزت على أبعادها وتجلياتها ، وكأن التعريف جاء وصفاً لظاهرة العولمة التي نراها على أرض الواقع .

بينما ركزت بعض التعريفات الأخرى على أمور صورية جامعة .

وعلى كل فالعولمة نظام جديد أو ظاهرة جديدة ، فرضها الواقع في أواخر القرن العشرين ، لذلك فليست المشكلة في تعريف العولمة ، إنما المشكلة في دراسة أهدافها وبدائلها وتحدياتها وكيفية نشوئها ، وهل تلغي الهوية الوطنية ، وهل تؤثر على الأمور القومية؟!

لذلك لابد من محاولة رصد هذه الأمور ـ ولو بشكل موجز ـ عسى أن نتعرف على بعض الجوانب المهمة المتعلقة بالعولمة .

* * *

الفصل الثالث

أنواع العولمة

لعل أهم نوعين للعولمة هما : عولمة الإعلام والثقافة والاتصالات ، وعولمة الاقتصاد والسياسة ، لذلك لابد من إطلالة سريعة على هذين النوعين .

١ـ عولمة الإعلام والثقافة والاتصالات :

تهدف عولمة الإعلام إلى التعظيم المتسارع والمستمر في قدرات وسائل الإعلام على تجاوز الحدود بين الدول ، والتأثير في المتلقين الذين ينتمون إلى ثقافات متباينة ، وذلك لدعم عملية توحيد ودمج أسواق العالم من ناحية ، وتحقيق مكاسب للأطراف المهيمنة على صناعة الإعلام والاتصال من ناحية ثانية .

وينطوي مفهوم عولمة الإعلام على مجموعة من الأبعاد والمكونات الأساسية ، وقد أوجزها الدكتور محمد شومان بما يلي[1] :

أـ أن عولمة الإعلام هي عملية متسارعة التغير ، وبالتالي لم تتشكل ملامحها النهائية بعد ، فهي تمر بمرحلة انتقالية ، وذلك لسببين رئيسين :

---

(١) بتصرف واختصار من مقال : عولمة الإعلام والهوية الثقافية العربية ، منشور في كتاب ندوة العولمة ص٨٢ـ ٨٨ ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس ـ ليبيا ـ .

الأول ـ أن عولمة الإعلام تعتبر أحد أبعاد عملية أوسع هي عولمة الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة ، ونظراً لعدم استقرار أو تبلور عملية العولمة ، فإن هناك مجموعة من الرهانات والتحديات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تحدد مسار تطور ـ بل ومستقبل ـ عملية عولمة الإعلام .

أي : إن النجاح في عولمة الإعلام يدعم من فرص نجاح عولمة الاقتصاد والثقافة والسياسة ، وبالمثل فإن نجاح عولمة الاقتصاد يدعم من عولمة الإعلام والثقافة السياسية ، والعكس صحيح .

الثاني ـ إن عولمة الإعلام تعتمد في بعد مهم منها على نتائج الثورة في مجال الاتصالات ، والتي بدأت لتوّها وسوف تستغرق تطوراتها عدة عقود قادمة ، وستدفعها إلى الأمام (التطبيقات) الجديدة ، أي الأدوات الجديدة التي ستلبي غالباً حاجات غير متنبأ بها حالياً .

ب ـ الترابط والتكامل بين مجالات الإعلام وتكنولوجيا الاتصال ومجتمع المعلومات بحيث أصبح من الصعب تعريف الإعلام ، أو الاتصال بمعزل عن تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية ، فالثورة في تكنولوجيا الاتصال أوجدت وسائل جديدة في الاتصال مثل البث التلفزيوني الفضائي ، والتكنولوجية الرقمية التي وفرت إمكانيات هائلة لاستقبال الصوت والصورة بدقة وبنقاء غير مسبوقين ، وكذلك وسائل الإعلام المرئية التفاعلية ، والفيديو تحت الطلب ، والصحافة الألكترونية عبر شبكة الأنترنت ، ووسائل الاتصال المحمولة ، علاوة على التطبيقات المختلفة للوسائط المتعددة ، وقد ارتبطت هذه الوسائل والتطبيقات بالمعلوماتية وبداية الدخول في مجتمع المعلوماتية الذي لم تتبلور معالمه بعد .

كل هذا أدى إلى اختيارات وتحديات هائلة أمام الأفراد والمجتمعات ، ففي العالم اليوم (٢٦) مليار جهاز تلفزيوني : منها (٢٠٠) مليون كابلية ، وحوالي (٦٠) مليون مرتبطة بمجموعة رقمية ، و (٦٩٠) مليون مشترك بشبكات الهاتف ، وهناك حوالي (٢٠٠) مليون جهاز حاسوب : منها (٣٠) مليون مرتبط بالأنترنت ، ويقدر أنه بحلول عام ٢٠٠١م سوف تتجاوز قوة شبكة الأنترنت شبكة الهاتف العالمية!!

جـ ـ النمو الهائل في اقتصاديات الإعلام والاتصالات والمعلومات . وقد أفضى هذا النمو إلى مزيد من التداخل بين عولمة الإعلام وعولمة الاقتصاد ، فأصبحت عولمة الإعلام جزءاً أصيلاً من عولمة الاقتصاد ، وذلك بالنظر إلى الدور الكبير لقطاع الاتصالات والإعلام والمعلومات في اقتصاديات الدول الكبرى والأسواق العالمية .

من هنا فإن أحد أبعاد عولمة الإعلام هو تعظيم الأرباح للشركات متعددة الجنسية التي تعمل في مجالات إنتاج وسائل الإعلام والاتصال والمعلومات وإنتاج المضامين الإعلامية المختلفة ، فضلاً عن صناعات الإعلام والترويج وبيع خدمات الإعلام والمعلومات

د ـ توسيع الخيارات والبدائل الإعلامية المتاحة أمام الجمهور ، فقد وفرت تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية وبصورة غير مسبوقة مئات القنوات التلفزيونية ، ومئات المحطات الإذاعية ، وعشرات الصحف والمجلات المحلية والدولية ، فضلاً عما توفره من وسائل الاتصال الأحدث والمرتبطة بالمعلوماتية .

كل هذا كان لصالح المزيد من الأرباح والهيمنة الأمريكية ، وذلك بحكم استحواذها على النصيب الأكبر من الإنتاج العالمي ، وأثبتت

الإحصائيات أن صناعة السينما الأمريكية جنت خارج أمريكا عام ١٩٩٥م مبلغاً وصل إلى المبلغ نفسه الذي حققته داخل أمريكا ، أي نحو (٢,٥) بليون دولار!!

هـ ـ تقليص دور الحكومات والمنظمات الدولية في تنظيم بيئة الإعلام والاتصالات المحلية والدولية ، لصالح الشركات الاحتكارية متعددة الجنسية .

وفي هذا السياق تطرح عولمة الإعلام مهام خصخصة وسائل الإعلام والاتصال ، وإنهاء دور الدولة في مجالات الإعلام .

لكن المشكلة المنطوية وراء دعوة أمريكا إلى خصخصة وسائل الإعلام ، وإنشاء مجتمع معلومات عالمي ، سيؤدي إلى تهميش دور الأمم المتحدة والمنظمات الدولية المعنية بالاتصال ، وبالتالي لا يمانع من نشر الأخبار الكاذبة ، والدعاية المغرضة ، وعدم الالتزام بالقيم الأخلاقية و. . . !!

* * *

لكن أهم الإشكاليات التي تثيرها عملية عولمة الإعلام هي :

١ـ مستقبل علم الإعلام أو الاتصال :

بعد الثورة التكنولوجية والتحولات السياسية والاقتصادية طُرح سؤال : هل نطور النماذج الأساسية القائمة ، أم نُبدع نماذج جديدة؟

وهكذا كان في مجالات الإعلام ، بل كان من المفروض مضاعفته في مجالات الإعلام ، حتى كانت هذه الثورة الهائلة في مجالات الاتصالات والإعلام عامة ، وهذا ما يجعلنا أمام مستقبل مجهول لعلم الإعلام والاتصالات. . !!

٢ـ التأثير الإعلامي ، والثقافة :

هناك من يرى أن الإعلام له دور ضئيل على الثقافة ، بينما يرى آخرون أن للإعلام دوراً كبيراً في توحيد وتنميط الثقافة ، ولكلٍّ وجهة يدافع عنها ويقدّم التبريرات والحجج ، لكن حقيقةً أن هذا الأمر خلق إشكالية كبيرة ، ما زالت موضع جدل : هل للإعلام دور وتأثير في مجالات الثقافة؟!

فكلما كثرت الخيارات أمام المثقف استطاع الانتقاء وبشكل أفضل ، واستطاع أن يتحرر من قيود الوسائل الإعلامية المبرمجة لصالح فئة أو سلطة ما ، لكن من جانب آخر قد تشكل عولمة الإعلام والاتصال تهديداً للتعددية الثقافية ، وعدواناً سافراً لمبدأ احترام الهويات الثقافية للشعوب المختلفة ، إذا عجزت الثقافات المختلفة عن استخدام تكنولوجيا الاتصال في تأكيد هويتها الثقافية والتفاعل بروح إيجابية مع حقائق وأوضاع عولمة الإعلام .

٣ـ عولمة الإعلام والمساواة :

إن دخول التطبيقات الحديثة للإعلام والاتصال والمعلوماتية ، والمشاركة فيها ، على المجتمعات الفقيرة والمتخلفة ـ مثلاً العالم الثالث ـ أدت إلى خلق تشوهات وانقسامات جديدة تضاف إلى رصيد الانقسامات والصراعات داخل هذه المجتمعات ، حيث اقتصر استخدام التطبيقات الحديثة للإعلام والاتصال والمعلوماتية على بعض أفراد وجماعات النخب في تلك المجتمعات!! بينما غالبية المواطنين محرومين وغير قادرين على استخدام أو الاستفادة من هذه التطبيقات ، وقد أثبتت الإحصائيات أن أجهزة الهاتف في (طوكيو) وحدها تفوق أعداد الهاتف في إفريقية !!

٤ـ عولمة الإعلام وحرية الإعلام :

المشكلة أن الذين يمتلكون وسائل الإعلام في ظل هذه العولمة المعاصرة هم أصحاب رؤوس الأموال ـ الملياردیرات ـ فما هو دور الصحفي أو الكاتب العادي في هذه المعمعة الإعلامية؟!

إنها الشركات الاحتكارية العملاقة هي التي تملك كل ذلك ، والمخيف أن يتحول الإعلام العملاق من الدفاع عن مصالح المواطن ، إلى أبواق دعائية للشركات الاحتكارية متعددة الجنسية .

وبالتالي سيزيد الإنفاق على الإعلانات وأنشطة البيع والترويج ، وسيكون هذا الإعلان والترويج معولماً ـ أي متعدد الجنسيات ـ .

وهذا كله يؤدي إلى مزيدٍ من انعدام حرية الإعلام و . . . . .

أمام كل هذا لابد من الاعتراف أننا على أبواب هجمة شرسة ، إعلامية وغير إعلامية .

ولا بد لنا من التسلّح بأسلحة شتى أهمها الوعي ، والاستفادة من تجارب الآخرين ، والتوجه إلى الانتقاء والاصطفاء ، ومحاولة مواكبة العصر بما يناسب قيمنا وأخلاقنا وإسلامنا وعروبتنا ، وإلا تحولنا إلى شعب استهلاكي لا وزن له ولا يُحسب له أي حساب!!!

٢ـ عولمة السياسة والاقتصاد :

من أبرز ما يتسم به الاقتصاد العالمي اليوم ، والذي يخضع ـ ولو في بداياته ـ لنظام العولمة[١] :

---

(١) للتوسع يراجع مقال الدكتور عراقي الشربيني في ص٧٥ من ندوة العولمة ـ مرجع سابق ـ .

أـ النمو السريع للتجارة العالمية : خاصة قطاع الخدمات ، مما أدى إلى زيادة ملحوظة في حركة الرأسمال الدولي ، وإلى زيادة أهميته أيضاً .

ب ـ تزايد سيطرة (الشركات متعددة الجنسية) على حركة التجارة والاستثمار والإنتاج على الصعيد العالمي ، وبالتالي فهذه الشركات تلعب دوراً رئيسياً في حركات رأس المال العالمي ، وتدل الإحصائيات على أن (٣٥٠) شركة عملاقة استاثرت بنحو (٤٠٪) من التجارة العالمية في منتصف التسعينات ، وهذا الاندماج الدولي للأسواق الذي أحدثته هذه الشركات أدى إلى تنامي رؤوس الأموال و . . هذه هي (العولمة الاقتصادية) .

كذلك أدت هذه الشركات إلى إمكانية اشتراك كثيرٍ من الدول في عملية التصنيع ـ والتصنيع الكبير ـ بحيث أدى ذلك إلى ما يسمى (التكامل العميق) . . .

جـ ـ تعاظم دور المؤسسات المتعددة الأطراف في تشكيل العلاقات الاقتصادية الدولية ، بل وفي صياغة السياسات الاقتصادية الداخلية والخارجية للدول ، ويكفي دليلاً ما للبنك الدولي ولصندوق النقد الدولي من تأثيرات كبيرة على سياسات الدول النامية ! !

لكن المشكلة المطروحة : هل للعولمة الاقتصادية فوائد أم لا ؟ !

يبدو أن الحديث في هذه المسألة سابقاً لأوانه بعد ، وذلك لأننا ما زلنا في بدايات مسألة العولمة ، إلا أن المحللين والمراقبين للأوضاع العامة يتوقعون أن تكون للعولمة الاقتصادية فوائد مثل : خلق مكاسب جديدة في الرفاهية والتقدم ، وذلك عن طريق تحرير التجارة الدولية ، والذي سيؤدي إلى نمو الدخل في الدول المتقدمة ، وهذا بدوره سيؤدي إلى تحسين فرص النمو في الدول النامية ، من خلال زيادة الطلب على منتجاتها ! !

لكن للعولمة أضرار كبيرة أهمها تهميش وضع الدول النامية ، وذلك لما تعانيه تلك الدول من تدهور اقتصادي ، جراء صدمات خارجية وكوارث طبيعية ، وفساد داخلي ، وعدم استقرار سياسي ، ولعل الاتجاهات الراهنة لعملية العولمة يشير بشكل واضح إلى أن هذه الظاهرة ليست في صالح الدول النامية ، ويبرز ذلك واضحاً في :

أ ـ اتجاه رأس المال والتكنولوجيا والعمالة الماهرة إلى التركيز في الأقاليم الأكثر تقدماً ، وذلك لأنها تحاول النزوح وراء الأجور المرتفعة خارج بلادها ، واستمرار هذه الاتجاهات من شأنه أن يزيد من التفاوت في توزيع الدخل العالمي ، ومن عدم العدالة في توزيع ثمار (العولمة) .

٢ـ إن عولمة الأسواق مضافاً إليها الضغوط من أجل التحرير الاقتصادي ، أدت إلى جعل الدول النامية أكثر اعتماداً على الواردات الغذائية ، والذي (زاد الطين بلةً) هو سيطرة الشركات متعددة الجنسيات على إنتاج الكثير من محاصيل التصدير في الدول النامية وتحكمها في تجارتها في أسعارها ، وتتضح هذه السيطرة من البيانات التالية :

هناك (٦) شركات تسيطر على (٨٥٪) من تجارة الحبوب .

وهناك (٨) شركات تسيطر على (٦٠٪) من البن .

وهناك (٧) شركات تسيطر على (٩٠٪) من تجارة الشاي .

وهناك (٣) شركات تسيطر على (٨٣٪) من تجارة الكاكاو .

وهناك (٣) شركات تسيطر على (٨٠٪) من تجارة الموز .

٣ـ العولمة ستؤدي إلى تحرير التجارة ، وبالتالي ستؤدي إلى منافسة شديدة لتجارة البلدان النامية ، مما يؤدي إلى عجزها ، وبالتالي إلى تدمير القطاع الصناعي فيها ، فتزيد البطالة وتتدهور مستويات المعيشة ، وهذه إحدى مشاكل العولمة ! !

٤ـ العولمة ستؤدي إلى زيادة الطلب على اليد العاملة الماهرة ، مما يؤدي إلى مزيد من البطالة عند غير الماهرة منها .

كذلك ستؤدي العولمة إلى تغيير أنماط الاستهلاك ، بحيث تصبح السيارة و . . . شيء أساسي في حياة الفرد . . . وهذا بدوره سيؤدي إلى ارتفاع أسعار السلع و . . . هذا كله سيؤثر على الطبقات الفقيرة .

إذاً :

العولمة ظاهرة ليست لصالح الدول الفقيرة والنامية وذلك لما ستجرّه عليها من الويلات والمشاكل ، خاصة على الصعيد الاقتصادي ، ولعل لغة الأرقام والإحصائيات تنجدنا في هذه المهمة الصعبة ، ولقد أراحنا (هانس بيترمارتين وهار الدشومان) من هذه المهمة الشاقة ، وذلك عندما بحثا تحت عنوان (فخ العولمة) ، ومما توصلا إليه ما يلي :

ـ إن مع نمو العولمة يزداد تركز الثروة ، وتتسع الفروق بين البشر والدول اتساعاً لا مثيل له : إذ أن (٣٥٨) ملياردير في العالم يمتلكون ثروة تضاهي ما يملكه (٢,٥) مليار من سكان المعمورة ، أي ما يزيد قليلاً عن نصف سكان العالم!!

ـ إن خُمس قوة العمل سيكفي لإنتاج جميع السلع ، ولسد حاجة الخدمات الرفيعة القيمة التي يحتاج إليها المجتمع العالمي ، إن هذه الـ (٢٠٪) هي التي ستعمل وتكسب المال وتستهلك ، أما الـ (٨٠٪) من الطبقة السفلى فستواجه بالتأكيد شيئاً آخر ، فالمسألة ستكون في المستقبل هي : إما أن تأكل أو تُؤكل!!

ـ إن العولمة أدّت ـ حسب إحصائيات أُجريت في ألمانيا ـ إلى ارتفاع نسبة البطالة بحيث وصلت ١٩٩٧م إلى (٨٪) ، أي ضعف ما كانت عليه عام ١٩٩٤م!!

ـ إن العولمة أدت إلى ارتفاع المجموع الكلي لمديونية الدول النامية على الرغم من كل ما تقدمه حكومات الشمال من تعهدات على أنها ستتخذ الخطوات اللازمة لشطب نسبة كبيرة من هذه الديون ، ففي عام ١٩٩٦م ارتفعت هذه الديون لتصل إلى (١,٩٤) ألف مليار دولار ، أي أنها ارتفعت إلى ضعف ما كانت عليه قبل عشرة أعوام!!

ـ إن من نتائج (العولمة) ارتفاع قيمة تداول العملات الأجنبية والأوراق المالية على المستوى العالمي إلى ما يزيد على عشرة أضعاف ، وفي خلال يوم عمل واحد تجري الآن عمليات بيع للعملات الأجنبية بقيمة تبلغ في المتوسط حوالي (١,٥) مليار دولار ، وتعادل هذه القيمة مجموع الناتج القومي الإجمالي السنوي في ألمانيا أو أربعة أضعاف ما ينفقه العالم في السنة على البترول!!

ـ كإحدى نتائج العولمة الاقتصادية ـ أن يصبح (اليورو : Euro) العملة الرئيسية في احتياطات العالم ، وذلك لاعتماده على أكبر سوق موحدة في العالم ، يضم ما يقرب من (٤٠٠) مليون مواطن ، وسيكون بوسع أوربا الوقوف مع الولايات المتحدة الأمريكية موقف النّد للنّد ، لكن أين موقع الدول النامية في ذلك الصراع؟!

ـ في أسواق المال ، على أقل تقدير ، تعني العولمة ، حتى الآن ، أمركة العالم إلى حد ما ، مثال : استطاع الماليزيون اللعب في حرب عصابات ضد الدولار والجنيه الإسترليني ، لكن شريعة غابات المال أدت في سنة ١٩٩٣م إلى خسارة الماليزيين لـ (٦) مليارات دولار!!

ـ إن الاقتصاد القائم على الجدارة العالية والتكنولوجية المتقدمة يتسبب عن طريق إعادة الهيكلية والتخلص من التعقيد والروتين وما يتبع ذلك من تقليص في فرص العمل وتسريح للأيدي العاملة ، في تفاقم

البطالة وفي خفض عدد المستهلكين في مجتمع الرفاهية ، ففي الشطر الغربي من ألمانيا ضاع في القطاع الصناعي في الفترة الواقعة بين عام ١٩٩١م وعام ١٩٩٤م ، أي في ثلاث سنوات فقط ، ما يزيد على مليون فرصة عمل!!

ـ إن المستفيدين من نظام العولمة الاقتصادية ليبررون كل ما يحدث بأفعال قوانين الطبيعة ، ليُبعدوا عن أنفسهم مصائب تحملها العالم وسيتحمل الكثير منها!! ذلك (إذرارد رويتر) الرئيس الأسبق لمؤسسة (دايملر بنز) يقول : إن المنافسة في القرية المعولمة تشبه الزوبعة ، لا أحد يستطيع البقاء بمنأى عنها .

وبعد مرور ثلاث سنوات وضياع مليون فرصة عمل أخرى ، راح رئيس مؤسسة (سيمنز هيزش فون بيرر) يكرر التحذير نفسه بذات الكلمات تقريباً ، إذ قال : لقد تحولت رياح المنافسة إلى زوبعة وصار الإعصار الصحيح يقف على الأبواب .

لكن بعد هذا كله : أين الجنة الموعودة التي وُعد بها أنصار نظام العولمة؟!

إن هناك جنوناً منظماً إذا صدقنا فكرة عولمة السوق وتحريره كلياً ، كذلك ففي نظام العولمة تُطرح مسألة العدالة والواقع يثبت ـ وسيثبت المستقبل أكثر ـ خرافة هذه العدالة ، والمتاجرة العادلة لا تحمي الدول الفقيرة والنامية .

وبالتالي فالتهرب الضريبي الكبير الذي تقوم به الشركات الاحتكارية الرأسمالية بحيث تقوم بتصنيع وتجميع غالبية أجزاء صناعاتها خارج بلادها ، خاصة في البلدان التي تكون فيها الأيدي العاملة كثيرة وزهيدة الثمن كالهند وماليزيا ، هذا لن يعود على العالم بالخير والازدهار ، إنما

ستكون نتيجة العولمة الاقتصادية زيادة احتكار رؤوس الأموال في أيدي الطبقة القليلة ، بينما ستزداد البطالة ارتفاعاً ، وستزداد أحوال الطبقة الفقيرة بؤساً وشقاءً ، فهل بعد هذا كله نصدّق شعارات تحاول تزيين بل تزييف الحقائق الواضحة عن نظام البؤس الذي يحمله من جراء عولمة الاقتصاد؟! ثم هل يهرب العالم من دكتاتوريات الماضي التي تميزت بالنار والحديد ، ليقع في دكتاتوريات السوق والعولمة التي تحمل شعارات التقنية والتكنولوجيا والعلم الحديث؟!

* * *

الفصل الرابع

أهدافها ، واقعها ، آثارها ، والتحديات الناتجة عنها!!

في العالم اليوم مؤيّدون ومعارضون لمسألة العولمة ، ذلك أن الخلاف في حقيقته خلاف علىٰ الأمور الاقتصادية بالدرجة الأولى .

أما المؤيدون للعولمة والمتحمسون لها فيرون أنها تهدف إلى تحقيق الآتي[1] :

١ـ تقريب الاتجاهات العالمية نحو تحرير أسواق التجارة ورأس المال .

٢ـ التوسع على مدىٰ العالم في بُنىٰ الإنتاج وإنشاء فرص للنمو الاقتصادي على المستوى العالمي .

٣ـ زيادة حجم التجارة مما يؤدي إلى الانتعاش الاقتصادي العالمي .

٤ـ زيادة الإنتاج المحلي والعالمي .

٥ـ التسريع في دوران رأس المال حول العالم من خلال الاستخدام الأمثل للعمالة المكثفة عالية المردود ، وهي التي تدعى في أيامنا هذه (Back Office) أي خدمات المكاتب الخلفية ، هذه المكاتب التي بدأت

---

(١) للتوسع يراجع كتاب العولمة لمحمد أبو زعرور : ٣١ـ٣٤ ، مرجع سابق .

تعمل على إدخال البرامج والاعتمادات المالية وصيغ المعالجات الضريبية والكثير من الأعمال الخدمية المهنية الحديثة مثل (الحوسبة ، والدعم التقني لبرامج التكنولوجيا المكتبية) .

٦ـ حل المشكلات الإنسانية المشتركة التي لا يمكن حلها من منظور السيادة الوطنية المطلقة للدولة التي يقوم عليها النظام الدولي القائم حتىٰ اليوم ، مثل : انتشار أسلحة الدمار الشامل ، والتهديدات النووية ، والبيئية ، وتطور الأوبئة والأمراض المعدية ، وانتقال الأيدي العاملة بكثافة من منطقة إلىٰ منطقة أخرىٰ ، وانتشار الجريمة والمخدرات وغيرها .

٧ـ إيجاد الاستقرار في العالم والسعي إلى توحيده .

٨ـ فتح أبواب التنافس الحر ولاسيما في مجال التجارة .

٩ـ نشر التقنية الحديثة وتسهيل الحصول علىٰ المعلومات العالية الهامة من خلال الاستفادة من الثورة المعلوماتية الحديثة .

أما المعارضون للعولمة وغير المتحمسين لها ، فيرون أنها تهدف إلى ما يلي :

١ـ الهيمنة علىٰ اقتصاديات العالم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية من خلال السعي لسيطرة الاحتكارات والشركات الأمريكية الكبرىٰ علىٰ اقتصاد الدول .

٢ـ التحكم في مركز القرار السياسي وصناعته في دول العالم لخدمة المصالح الأمريكية وما يسمىٰ بالأمن القومي الأمريكي علىٰ حساب مصالح الشعوب وثرواتها الوطنية والقومية .

٣ـ إلغاء النسيج الحضاري والاجتماعي للشعوب .

٤ـ تدمير الهويات القومية والثقافة القومية للشعوب .

٥ـ مضاعفة فرص المجموعات الأقوى التي كانت تسيطر في الأصل على عناصر القوة الاقتصادية والعلمية والتقنية والثقافية وغيرها .

٦ـ تعميق التناقض بين المجموعات البشرية بقدر قدرة هذه المجتمعات علىٰ بلورة استراتيجيات فعالة وناجعة للصراع علىٰ المصالح .

٧ـ زيادة الدول القوية غنىٰ بينما تزداد الدول الفقيرة فقراً ، أي أن هناك : (دولاً قناصة ودولاً مقنوصة) .

٨ـ اختراق القوميات والقيام بتفتيت بعض الدول والكيانات .

٩ـ فرض السيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية علىٰ الشعوب بقصد استغلالها ونهب ثرواتها ، وبمعنىٰ أوضح بروز نوع جديد من الاستعمار في القرن الحادي والعشرين أبشع لوناً وأشد خطراً وأبلغ ضرراً مما سبق من أنواع الاستعمار التي عرفها العالم .

١٠ـ القضاء علىٰ الهوية الثقافية والقومية وعلىٰ تراث الأمم والشعوب الفكرية والحضارية .

* * *

وأما آثار العولمة وتأثيرها ، فحتىٰ الآن لم تتضح بشكل مفصل ، لكنها واقع ملموس تؤثر في بعض المستويات أهمها[1] :

أـ أحدثت العولمة تغييرات في الحياة المادية ، أي التغيير في هياكل الإنتاج التي تحدد نوعية السلع والخدمات التي تنتجها المجتمعات البشرية من أجل بقائها ورفاهيتها ، فبدل أن كانت السلع والخدمات تنتج من قبل

---

(١) للتوسّع يراجع مقال الدكتور إبراهيم نصر الدين : العولمة وانعكاساتها على دول العالم الثالث ، في صفحة ٣٤ـ ٣٨ في كتاب ندوة العولمة ـ مرجع سابق .

شعب معين يعيش عن إقليم دولة ، ومن أجله ، فقد أصبحت هذه تنتج من قبل شعوب من دول مختلفة للوفاء باحتياجات السوق العالمي بدلاً من السوق المحلي .

ب ـ أحدثت العولمة تغيرات في الهياكل المالية ، تلك الهياكل التي من خلالها ينشأ الائتمان لتمويل إنتاج السلع والخدمات ، فعلى حين أن خلق الائتمان لتمويل إنتاج السلع والخدمات ، فإنه في الوقت الحاضر أخذ يعبر الحدود الإقليمية للدول في إطار أسواق عالمية ترتبط إلكترونياً بنظام واحد ، ولا ينفي ذلك بحال وجود بنوك محلية وأسواق تخلف الائتمان للاستخدام المحلي ، غير أن هذه البنوك لم تعد مستقلة تماماً ، ذلك أنها باتت تشكل جزءاً من نظام أكبر تتأثر به صعوداً وهبوطاً أكثر من تأثرها بالأوضاع المحلية .

جـ ـ وتمارس العولمة دورها علىٰ مستوىً ثالث ألا وهو المدركات والمعتقدات والأفكار ، والتذوق . . . الخ ، فعلىٰ حين أن التنوع الثقافي ما زال قائماً ، إلا أن مشاعر وتوجهات وسلوك الكائن الفرد أخذت في التأقلم مع مقتضيات عملية العولمة ، وباتت العملية أكثر سهولة وسرعة مع الثورة المعلوماتية ، وانخفاض تكاليف الاتصالات الدولية ، ورغم أن هذا المستوى الثالث يصعب قياسه أو تحديده ، إلا أن تأثيراته ستكون الأكثر أهمية علىٰ المدىٰ البعيد في كل التحولات التي تفرزها عملية العولمة .

ولقد ولّدت عملية العولمة أعباء تفوق ما ترتب من فوائد ، ومخاطر تفوق ما أفرزته من فرص ، ويكفي أن نشير هنا إلىٰ ثلاثة آثار مأساوية علىٰ الاقتصاد السياسي العالمي نجمت عن تأثيرات العولمة علىٰ وضع الدولة :

١ـ علىٰ المستوىٰ الاقتصادي : تحتاج اقتصاديات السوق ـ على المستويين المحلي والدولي ـ إلىٰ سلطة قادرة علىٰ فرض النظام ومنح الثقة للبنوك والأسواق المالية ، ويكون بمقدورها تطبيق المنطق الكينزي في لحظات انخفاض النمو والكساد ، ولكن المشكلة في الظروف الراهنة أن إضعاف الدولة تحت ضغوط عملية العولمة يحول دون تحقيق ذلك ، ثم إنه لا توجد أي من المنظمات الدولية يمكن الاعتماد عليها في هذا المضمار .

٢ـ وعلىٰ المستوىٰ البيئي : فإن دوافع اللاعبين الدوليين ومصالحهم ـ الشركات متعددة الجنسيات ـ تدفعهم إلىٰ تدمير وتلويث البيئة ، في الوقت الذي باتت فيه الدول عاجزة عن مواجهة ذلك نتيجة تآكل سلطاتها تحت ضغوط المبادىء الجديدة للتنظيم الدولي ، في ظل القيود التي فرضت علىٰ سيادتها .

٣ـ وعلىٰ المستوىٰ السياسي : فإن النضال الطويل لشعوب العالم الثالث من أجل الحرية والمصداقية ، جعل بعض الدول تتمتع بالمصداقية تجاه شعوبها ، ولكن العولمة بتحويلها للسلطة من الدولة إلىٰ الشركات متعددة الجنسية سمحت للبيروقراطية الدولية بتقويض هذه المصداقية بشكل أفقد حكومات هذه الدول مشروعيتها تجاه مواطنيها ، وهو الأمر الذي ترتب عليه اندلاع حالات عدم الاستقرار السياسي بمختلف أشكالها بشكل أسفر عن تراجع ديمقراطي ، والمشكلة أنه لا توجد سلطات غير حكومية جديدة (شركات ـ منظمات . . الخ) يمكن أن تتمتع بمثل هذه المصداقية .

* * *

وفي دراسة التحديات الناتجة عن العولمة ، أيضاً ينقسم الباحثون إلىٰ فريقين : معارضين ومؤيّدين ، وعلى كلٍّ فيمكن إيجازها بما يلي[1] :

أـ علىٰ المستوىٰ السياسي : فإن أنصار العولمة يرون أن تطبيقها أو إيمان كل الدول بها سيعني حتماً سيادة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وحريته ، كذلك يساعد علىٰ حل المشكلات التي تواجه العالم كله مثل انتشار أسلحة الدمار الشامل والتلوث البيئي وإحلال السلام العالمي .

لكن الرأي المعارض يفند هذه الآراء والتوقعات مرتكزاً إلىٰ الواقع الحالي والذي يشهد لحد ما سيادة العولمة بدرجة أو بأخرى ، فعالم اليوم يضج من المشكلات والحروب والأزمات سواء علىٰ المستوى الدولي أو علىٰ المستوىٰ المحلي لكل دولة . كما أن قيام الولايات المتحدة بدور (شرطي العالم) الذي يحكمه وينظمه ويفرض القوانين قد نتج عنه إدراك كثير من دول العالم لمصلحة الولايات المتحدة من الترويج لهذه الشعارات ، وكيف أنها تستخدمها لإنهاك قوىٰ العالم الإسلامي بصفة خاصة ، فتحت هذه الدعاوي تقوم الولايات المتحدة بتوجيه الضربات العسكرية القاصمة إلىٰ العراق ، وتفرض الحظر الاقتصادي على إيران وليبيا والسودان ، وكأن هذه العقوبات لم توضع إلا لتطبق على دول العالم الإسلامي .

ب ـ علىٰ المستوىٰ الاقتصادي : يبشر أنصار العولمة بالتقدم والرخاء والازدهار الذي ينتظر الدول التي تؤمن بها وتنفذ الإجراءات والسياسات الاقتصادية التي تتفق معها ، وأولىٰ خطوات العولمة من الناحية الاقتصادية هو الانفتاح علىٰ الأسواق العالمية وإزالة كافة الحواجز التي

---

(١) للتوسع يراجع كتاب ندوة العولمة ـ مرجع سابق ـ ص١٠٨ـ١١٠ .

تعوق حركة انتقال الموارد الاقتصادية من دولة لأخرى ، كذلك تتطلب العولمة أيضاً العمل بكل الوسائل علىٰ جذب رؤوس الأموال الأجنبية وتسهيل انتقال رأس المال الوطني إلىٰ الخارج .

ولكن الرأي المعارض يرىٰ أن كل ما سبق مجرد أوهام تحاول بها الدول المتقدمة أن تخدع الدول النامية بتطبيق الأساليب التي من شأنها أن تحقق لها مزيداً من الثروة والهيمنة والسيطرة ، فإذا أخذنا بعين الاعتبار الاختلاف الشاسع بين هياكل الإنتاج داخل كل من الدول المتقدمة والدول النامية اتضح لنا أن الدول النامية هي الأكثر تضرراً من ذلك ، فأغلب الدول النامية تعتمد اقتصادياتها على تصدير ما لديها من مواد خام ، ونصف مصنعة مقابل استيراد السلع تامة الصنع من الدول المتقدمة ، وبالتالي فإن فتح الأسواق علىٰ مصراعيها يعني انخفاض أسعار المواد الخام لأدنىٰ مستوىٰ ممكن ـ نظراً لزيادة الكميات المعروضة من أطراف متعددة ـ مقابل ارتفاع أسعار السلع تامة الصنع لأعلىٰ مستوياتها ـ نظراً لانخفاض الأطراف التي تعرضها ـ وهذا الوضع بالتأكيد يعني زيادة الدول المتقدمة غنىً والدول النامية فقراً ، كما أنه يقضي علىٰ أية محاولة من أية دولة نامية لتنمية الصناعة الوطنية بها نتيجة لضعف قدراتها التنافسية .

كذلك العمل علىٰ حرية انتقال رأس المال لا يعني إلا مزيداً من ظلم الدول النامية ، فرأس المال بطبيعته (جبان) لا يعمل إلا في المجالات المستقرة ذات أعلىٰ ربحية ممكنة ، والتي تتمثل في مجالات المال والأوراق المالية ، وكلها لا تساهم بأي حال في تحقيق تنمية حقيقية للدول النامية ، كما أن المحصلة النهائية ستكون انخفاضاً في حجم رأس المال المتاح محلياً حيث سيكون خروج رأس المال الوطني أكثر من حجم تدفق رأس المال الأجنبي إليها ، وهو ما يعرف في الدراسات الاقتصادية بمصطلح (هروب رأس المال : Flight Capital) .

جـ ـ **علىٰ المستوىٰ الثقافي** : فالعولمة تبشّر هنا بعالم واحد تسوده ثقافة واحدة تحمل مفاهيم وقيماً واحدة من شأنها القضاء علىٰ مشكلة التمايزات الثقافية والحضارية بين الأمم المختلفة ، وهذا لن يتحقق إلا من خلال ثورة الاتصالات ، والتي ينتج عنها أن تصبح سماء العالم مفتوحة لا يحدها أي عائق ولا تمنعها حدود ثقافية ، فهذه الثورة لا تعرف بحواجز اختلاف اللغة والثقافة والقيم التي تسود كل مجتمع ، إنما الأصل هو ثقافة واحدة تسود في عالم واحد .

والقول بسيادة ثقافة واحدة من خلال ثورة الاتصالات لن يعني شيئاً سوىٰ سيادة وهيمنة الثقافة والقيم الأمريكية علىٰ العالم كله ، وبالتالي فعولمة الثقافة تهدد بصورة أكبر دول العالم الإسلامي الذي تسوده ثقافة وقيم تختلف تماماً عن تلك التي تسود في الولايات المتحدة التي تعكس في أغلبها قيم الانحلال الديني والأسري ، وتروج لقيم المصلحة الذاتية قبل كل شيء ، وأن الحرية الشخصية لا قيود عليها ، وهذه القيم مستمدة أو متمشية تماماً مع (الفلسفة البراجماتية) التي تحكم المجتمع الأمريكي .

* * *

وأما واقع العولمة اليوم فهو واقع لا يبشر بالخير أبداً!! ذلك لأن المسألة ـ وعلى الرغم من المتحمسين للعولمة ـ باتت تنحصر بالصراع بين الرأسمالية والإسلام .

أجل ، انتهت الحرب العالمية الباردة ، وذلك بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ١٩٩١م وخرجت الرأسمالية الغربية منتصرةً ، وأصبح الاتجاه الدولي نحو أحادية القطب أي نحو أَمْرَكَة العالم ، وبذلك راحوا يروّجون لفكرة ولادة نظام دولي جديد ، وذلك أدىٰ بدوره إلىٰ محاولة جعل

الرأسمالية دين الشعوب والأمم ، فالرأسمالية هي الميزان في العالم .

لكن الخبراء في دولهم الغربية ينظرون إلىٰ انهيار الاتحاد السوفياتي بعين الرضا والسرور ، وينظرون إلىٰ الإسلام الذي له تاريخ سامق ، والذي ما إن تتهيأ له الظروف و . . . حتىٰ يعود إلى الصدارة من جديد ، ينظرون إليه بعين الغدر والحقد والثأر القديم ، لذلك جاءت التصريحات والتلميحات إلىٰ أن العدو الوحيد اليوم للغرب هو : الإسلام ، ولذلك جاءت التركيزات العسكرية والثقافية والأمنية علىٰ وضعٍ أمريكي ـ أوربي في دول العالم الإسلامي خاصة في دول الخليج العربي ، لتطرح ـ وعن طريق العولمة ـ كل ما ينافي الإسلام ويسقطه ، وتتجلىٰ الحملة الأمريكية للقضاء علىٰ الإسلام في شعارات أربعة هي في الواقع تمثل جوهر الرأسمالية وحقيقتها ، وهي[1] :

١ـ **الديمقراطية** : والتي هي في حقيقتها حكم الشعب للشعب ، أي أن المشرّع هو الشعب وليس الله عز وجل .

٢ـ **التعددية السياسية** : وهي في واقعها تعني تعدد الأحزاب ضمن عقيدة واحدة هي عقيدة الرأسمالية ، وهي فصل الدين عن الحياة .

٣ـ **حقوق الإنسان** : والتي تلقىٰ رواجاً بين سكان العالم بما فيهم المسلمين نتيجة ما يلاقونه من ظلم واضطهاد من حكامهم ، وحقيقة هذا الشعار مبنية علىٰ الحريات الأربع وأهمها حرية العقيدة والحرية الشخصية .

٤ـ **سياسات السوق** : أي تطبيق دولي لحرية التملك علىٰ العلاقات التجارية بين الدول ، ولذلك تسعىٰ أمريكا لرفع الحواجز الجمركية عن

---

(١) العولمة لمحمد أبو زعرور ـ مرجع سابق ـ : ٤٤ـ٤٥ .

التجارة الدولية ، كسياسة الحماية التجارية المباشرة ومنع استيراد سلع معينة حماية لسلع مماثلة منتجة محلياً من المنافسة ، لذلك سعت أمريكا لعقد اتفاقات دولية للتجارة وإنشاء تكتلات اقتصادية مع الدول الغربية ، مثل تكتل (النافتا) والسوق الأوربية المشتركة وغيرها .

إذاً :

الواقع المؤلم الراهن للسياسة الدولية تجاه العالم كله وتجاه المسلمين بشكل خاص يدلنا بوضوح علىٰ ما تهدف إليه العولمة ، ولعلها بذلك تحقق ـ أو تسعىٰ إلىٰ تحقيق ـ ما يلي :

أـ إحكام سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية علىٰ اقتصاديات العالم بشكل عام ، وعلىٰ اقتصاديات العالم الإسلامي بشكل خاص ، وذلك بأساليب عدة أهمها :

فتح المجال أمام الشركات الأمريكية والشركات الكبرىٰ متعددة الجنسيات للقيام بما يسمىٰ بالاستثمار غير المباشر ، والدليل علىٰ ذلك ما حدث ويحدث في بعض أجزاء من العالم من هزات قوية في الأسواق المالية ، كما حدث مؤخراً في أسواق هونج كونغ واليابان وأوربا وكوريا الجنوبية .

ب ـ إيهام العالم بأنه لا سبيل للتقدم الاقتصادي إلا بنظام السوق المفتوح ، أي الحرية الاقتصادية المطلقة ، لفتح أسواق العالم أمام المنتجات الغربية بشكل عام والمنتجات الأمريكية بشكل خاص .

جـ ـ فتح الباب علىٰ مصراعيه أمام الاستعمار الغربي الجديد المباشر منه وغير المباشر ، وإجبار الدول أو إيهامها بضرورة الدخول في الاقتصاد العالمي ، أي بقبول إنشاء مصانع للشركات الكبرىٰ في البلاد تسخر فيها ملايين الأيدي العاملة الرخيصة لإنتاج السلع الاستهلاكية لأسواقهم .

د- إيهام العالم - من خلال الحملات الإعلامية المركزة والإعلام الموجه - بأنه ليس أمام الناس من بديل إلا الفكر الرأسمالي والثقافة الغربية .

هـ - العمل الجاد لتثبيت الأنظمة الثلاثة الأساس في الاقتصاد الرأسمالي وهي : نظام الشركات المساهمة ، نظام الربا المصرفي ، نظام النقد الورقي الإلزامي .

و- القضاء علىٰ الأيديولوجيات والثقافات والحضارات التي لا تدين بالرأسمالية وبفكرة فصل الدين عن الحياة والقضاء علىٰ التقاليد والعادات وغيرها مما يسمىٰ بالتراث .

ز- فرض الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية علىٰ شعوب دول العالم بشتىٰ الوسائل والطرق ومنها ثورة الاتصالات والهجمة المعلوماتية الهائلة التي تمثلها وسائل الإعلام المختلفة وأهمها الأقمار الصناعية ، وكذلك الترويج لتجارة الأسلحة .

ح - عدم حدوث الاستقرار وبقاء العالم ، ولاسيما دول العالم الإسلامي ، في حالة عدم استقرار وإثارة الفتن والحروب والخلافات الحدودية بين الدول ، والإبقاء علىٰ وجود بؤر توتر في العالم .

ط - الحيلولة دون عودة الإسلام إلىٰ واقع الحياة وعدم إتاحة الفرصة لمبدأ الإسلام بالبروز العالمي من خلال دولة تقوم علىٰ أساسه وتسعىٰ إلىٰ تولي الصدارة العالمية والتأثير على الموقف الدولي على اعتبار أن الإسلام هو المبدأ الوحيد الباقي واقعياً - بعد انهيار الشيوعية ومنها الاشتراكية - والقادر علىٰ وضع معالجات لمشاكل الإنسان والحياة .

ي - تغيير جغرافية العالم من خلال القضاء علىٰ بعض الكيانات السياسية ، وإيجاد كيانات أخرىٰ تابعة وهزيلة لا تقوىٰ علىٰ النهضة ولا

على مقاومة هجمة العولمة بشتىٰ مناحيها .

ك ـ فرض استعمار من نوع جديد يمكن أن نسميه استعمار القرن الحادي والعشرين .

إذاً :

هذا الواقع المؤلم للعولمة ، وهذه هي التحديات الناتجة عنها ، وهذه آثارها هنا وهناك ، فكيف علينا كمسلمين ـ أن نواجهها؟! هل نرحب بها؟ هل نؤيدها؟ هل نصفق لها وننخدع بشعارات براقة تحاول تحسين صورتها؟ أم أن هناك موقفاً آخر؟!![1] .

* * *

فكيف يواجه المسلمون في هذه الأيام مسألة العولمة؟!

حسب الواقع الراهن ، وحسب وجهة نظر (صراع الحضارات) فلا بد من صراع إسلامي غربي ، ويبدو للعيان ما تفعله أمريكا مدعومة من الغرب كله بالبلاد العربية والإسلامية ، من ضرب العراق مرات ومرات ، والتأكيد علىٰ تدمير بنيته الاقتصادية التحتية ، تحت حجج واهية يعرفها القاصي والداني .

كذلك استنزاف خيرات العرب في دول الخليج العربي ، إلىٰ درجة أن كل ما أنتجه البترول العربي من خيرات ـ وما ينتجه ـ لم يعد ليغطي تكاليف الدفاع عن تلكم الدول ، من جراء طمع النظام العراقي بالكويت وجيرانها ، والإحصائيات ولغة الأرقام خير دليل علىٰ ذلك .

كذلك مسألة الحظر الاقتصادي علىٰ ليبيا والسودان وإيران ، ولا ندري ماذا يخبىء المستقبل لهذه الأمة؟!

---

(١) هذا ما نفصله أكثر في الباب الثاني ـ إن شاء الله تعالىٰ .

كذلك ما يفعله الكيان الإسرائيلي في فلسطين وجنوب لبنان ومرتفعات الجولان ، وكل ذلك بدعم مطلق من أمريكا والغرب ، وكل ذلك تحت غطاءات مزيفة : من حقوق للإنسان ، إلىٰ منظمة الأمم المتحدة ، إلىٰ . . . . !!!

وفي أفغانستان نزيف يتلوه نزيف ، وفي البوسنة والهرسك ، وفي كوسوفو ، وفي . . . . ، وفي . . . . ، وفي . . . . ، دماء المسلمين والعرب أصبحت أرخص أسعاراً من كل دماء العالم ، وملخص المسألة بأنه لابد من مواجهة محتومة بين الإسلام وأعدائه من الغرب .

أجل ، توحدت الدول الأوربية في مجالات شتى : في السوق الأوربية المشتركة ، وفي العملة الواحدة هي (اليورو) الذي سيكون له آثار اقتصادية كبيرة . . .

والعرب والمسلمون تجمعهم عوامل مشتركة للتوحد : فالرب واحد ، والقرآن واحد ، والنبي ﷺ واحد ، والقِبلة واحدة ، واللغة المعتمدة واحدة ، والمصير واحد ، ومع ذلك فهم متفرقون مشتّتون ، بعضهم لهث تارةً وراء الشرق الشيوعي ، فاكتشف بالتالي أنه يلهث وراء سراب ، كما قال تعالى : ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] . وسقطت أحلام تحقيق الجنة على الأرض ، والتي نادىٰ بها يوماً ما (ماركس) ، والبعض الآخر اخترع إيديولوجيات مرقعة من أنظمة غربية وشرقية ، وبعد عقود وعقود تبيّن فشلها أيضاً ، والبعض الآخر يمّم شطره تجاه واشنطن وباريس ولندن ، فما حصد إلا الهوان والذل والخسران!!

إذاً : لابد من توحيد الصف وراء الإسلام الحنيف ، أجل ، أن

نجرّب دواءً جرّبه الأجداد فكان الشفاء العاجل لأمراضهم ، فلماذا لا نجرّب ذلك؟!

ولابد من حشد الطاقات : سواءً كان ذلك في الجانب العسكري أو الثقافي أو السياسي أو الاقتصادي ، تحقيقاً لقوله تعالىٰ :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

وبعد ذلك كله أن نسلّم الأمر كله لله ، وذلك عن طريق ربط الأمور كلها بيد الله ، وهذه غاية التوكل علىٰ الله كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ولا بدّ بعد ذلك كله من الاهتمام بالأجيال القادمة ، وتوجيهها نحو الاستفادة من كل الأمور التقنية الحديثة : كالأقمار الصناعية ، والإنترنيت ، وغير ذلك .

وهذا من جوهر الشريعة الإسلامية ، وإلا فإذا احتاجت قرية (لإبرة) فعجز أهل القرية عن صناعتها ، فكل أهل القرية آثمون أمام الله تعالىٰ!!

ولا بدّ من تعويد الجماهير علىٰ مسألة الشورىٰ والديمقراطية ، ورفع شعار الحوار في كل شيء ، ومع أي شيء ، أي : ليس هناك مقدسات وممنوعات ، وليس هناك خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها ، إنما للمسلم وغير المسلم الحق في طرح أي مسألة علىٰ بساط الواقع ، حتى مسألة النبوات ، وحتىٰ مسألة إثبات أن القرآن الكريم من عند الله ، بل وحتىٰ وجود الخالق سبحانه وتعالىٰ!!

وهذا الحوار لابد أن يكون مع جميع أهل الأديان والأنظمة ، فالحقيقة أنه لا يصحّ إلا الصحيح أخيراً ، والإسلام يفتح باب الحوار من منطلق أنه الدين الصحيح الخاتم الذي ضمّ كل الأمور الصحيحة الصالحة في الأديان السابقة ، وبالتالي :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

[آل عمران : ٦٤] .

ومن خلال الحوار يتعلم الفرد كيفية الخلاف مع الآخرين ، ليوظف هذا الخلاف لصالح الأمر العام ، ويتعلم كيفية الاتفاق مع الآخرين ، ليسير الجميع في سيلٍ عرمرمٍ يصب في النهاية لصالح الأمة الإسلامية ، بل وحتىٰ الإنسانية جمعاء .

وإذا وصلت الأمة ـ والتي هي مجموعة الأفراد ـ إلىٰ مستوىٰ الحوار مع الآخرين ، عندئذٍ لن يعتدي مسلم علىٰ مسيحي أو يهودي أو غير ذلك ، وبالمقابل لن يعتدي الآخرون علىٰ المسلمين ، لأن المسألة في النظر الإسلامي أن « الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلىٰ الله أنفعهم لعياله » والفيصل في القضية :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

عندها يجب علىٰ أصحاب التبشير أن يوقفوا التبشير في بلاد المسلمين ، وعليهم أن يتركوا الناس يعيشون حرية العقيدة ، ليصل الناس إلىٰ مجتمع : (اللا إكراه في الدين) ، ثم ليكن بين أصحاب الأديان حوارات ، فإن وصلوا إلىٰ نتيجة مرضية كان ذلك خيراً ، وإلا :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون : ٦] .

كذلك فلا بد من إعادة الصورة الحقيقية الناصعة للدين الإسلامي إلىٰ واجهة الأحداث ، بعد أن استولىٰ علىٰ الأمور الإسلامية ـ وللأسف الشديد ـ ثلة من شبّان فشلوا في دراساتهم الإسلامية أو الأكاديمية العلمية ، فرأوا أن أقصر الطرق إلىٰ الوصول للواجهات هي إعلان العصيان المسلح! أو إعلان (إمارة المؤمنين!!) أو . . . . ، وما حركة

الطالبان الأفغانية وأعمالها التخريبية عنّا ببعيد!!

علىٰ الواعين من المسلمين رفع راية « يسرا ولا تعسّرا ، بشرا ولا تنفرا » عليهم أن يعيدوا صفاء الإسلام من خلال : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الانشراح : ٥-٦] . وإلا فالغربيون الحاقدون أرادوا تشويه الإسلام من خلال إطلاق مصطلحات : الإرهاب ، والأصولية ، ويضربون الأمثلة بما يفعله شباب في الجزائر ، أو شباب في أفغانستان ، وما إلى هنالك .

بينما فتح الرعيل الأول دولاً وبلاداً بلا حروب ولا دماء ، إنما فتحوها بالتعامل السلمي وبالأخلاق الإسلامية الرائعة .

فهل نفهم هذه الحقائق ، ثم نُفهمها الآخرين ، ليزيلوا تلكم الصورة البشعة ، والتي رسمها الإعلام الصهيوني والغربي في أذهان الكثيرين؟!

أيضاً ، هناك أمر آخر وهو :

عودة علمائنا وخاصةً المختصون منهم في الفقه والأصول ، وبالتعاون مع علماء الاقتصاد وعلماء الطب وعلماء التشريح وعلماء الكيمياء وعلماء . . . ، لإعادة ملفات قديمة في الفقه ، وهي أكثر إلحاحاً لطرحها علىٰ بساط الواقع ، من أجل النظر إليها بعين العصر ولغته ، أي فتح باب التجديد والاجتهاد ، خاصة في الأمور المعاصرة والتي لم تكن في الزمن الماضي : مثل الاجتهاد في مسألة بنوك الحليب ، وبنوك النطاف ، وقضية الاستنساخ ، وقضية نقل الأعضاء وزرعها ، وقضية الجينات ، ومسائل الوراثة والتحكم في الجنين ، وقضايا مالية اقتصادية كثيرة ظهرت في هذا الزمان ، وهذا كله ضمن دوائر خصائص الشريعة الإسلامية ، خاصة مسألة المرونة ، والتي إذا استفاد منها المسلمون استطاعوا

استيعاب ذلك كله ، وبالتالي طرحوا الإسلام أمام الناس علىٰ أنه الدين الوحيد القابل للتطبيق في كل زمان ومكان .

وبالطبع هذا أفضل بكثير ، وأنفع للأمة ، بل للإنسانية كلها من مسائل لا تقدّم ولا تؤخر : أين يضع المسلم يديه في الصلاة؟! أيضعها على سرّته! أم تحتها؟! أم إلىٰ يمينها؟! أم إلىٰ يسارها؟! أم يطلق اليدين؟! وكم في قضايانا ومناقشاتنا من أمثال هذه الأمور التي لا وزن لها في المنظور الشرعي؟!

الأمة تعاني أعتىٰ هجمة شرسة مخططة ومنظمة مدعومة من جميع قوىٰ الشر ، وغالبية المتصدرين عندنا للفتوى نائمون ، أو منشغلون بمسألة : أسبقية البيضة أم الدجاجة!! وليس هذا هو الحل لمجابهة (العولمة) إنما الحلّ يكمن في استنفار جميع القوىٰ وتوحيدها من أجل الوقوف أمام ذلك كله .

* * *

الفصل الخامس

تناقض العولمة مع الهوية!!

تحت سياسة فرض الواقع ، يرى البعض أن مسألة العولمة هو مصطلح من المصطلحات الحديثة ، شأنه شأن كثير من المصطلحات المعاصرة (كالديمقراطية ، والحداثة و. . .) ، لذلك نرى الدول القوية لا تستشكل أمام العولمة ـ حتى لو كانت صبغتها أمريكية ـ إنما الذين يقفون أمام هذه الظاهرة هم الضعاف الذين لا يملكون سلاح الردّ والمدافعة عن أنفسهم ، لذلك يتحدثون عن العولمة من منظور غزو ثقافي وما إلى هنالك .

لكن القضية ليست في رفض ذلك أو قبوله ، فالعولمة أمر واقعي بدأ وانتشر بسرعة ، ولابد من التعامل معه كأمر واقعي ، فرفضه لا يفيد شيئاً ، إنما الذي يفيد هو فقه واقعنا للتكيف معه ، وبالتالي تحصين أفراد الأمة من مساوىء العولمة ، والاستفادة من إيجابياتها .

أجل :

فالعولمة إذا أُخذت كمفهوم إكساب الشيء طابع العالمية ، وبالتالي عدم المساس بخصوصيات كل أمة ، أي عدم الدخول فيما يتعلق بالهوية ، فهذا لا يعني بتاتاً تناقض العولمة مع الهوية ، ذلك لأن العولمة لا تطرح نفسها كبديل عن الهوية ، إنما تطرح نفسها ـ كما يرى بعض

المتحمسين لها ـ كإطار للتنوع الثقافي ، وكوسيلة جديدة للحوار الراقي بين الحضارات والأديان ، وعلى أساس التسامح بين البشر .

إذا كانت المسألة كذلك حقيقة : فلا تناقض بين الهوية والعولمة ، فماذا يقول الواقع؟!

ينطق الواقع بأفصح لغة وأحسن بيان عن ثمة تناقض بين العولمة والهوية ، وذلك من خلال فرض هيمنة أمريكية علىٰ كل الهويات والأنظمة الأخرى ، وعلىٰ جميع الأصعدة ، في الأمور الشكلية والفرعية .

فالهوية تعبر عن خاصية المطابقة : مطابقة الشيء لنفسه ، أو مطابقته لمثيله ، فهل تطابق العادات والتقاليد الأمريكية عادات العرب ـ مثلاً ـ وتقاليدهم؟! هل تطابق النظرة ـ إلى الأشياء بمنظور المصلحة ـ الأمريكية أو الغربية هل تطابق نظرة المسلمين للأمور من خلال الأمور العامة ، أي تغليب المصلحة العامة علىٰ المصلحة الفردية؟!

وهكذا ، نرى التناقض الواقعي بين الهوية وبين العولمة المعاصرة ، وهذا يقودنا إلىٰ التأكيد علىٰ مسألة وهي :

أنه إذا رأينا محاولة مسخ الأمم والشعوب من عاداتها وتقاليدها وعقائدها وذاكرتها الأدبية والتاريخية ، ووضع بدلاً عنها عادات وتقاليد وعقيدة وذاكرة الأمريكان ، فإن ذلك لن ولم يحدث ، صحيح أن البدايات توحي بصرعة التقليد الكاسح ، لكن الباحث والمحلل يرى أن المسألة لا تتعدىٰ حماس المراهقين للتقليد ، سواءً كان ذلك في لبس (الجينز) الأمريكي ، أو سماع موسيقىٰ الروك الأمريكية ، أو أكل ساندويشات تنتجها مطاعم أمريكية ، وهذا الأمر يشبه الزبد الذي يحمله السيل العارم ، ولن يبقىٰ في العقول والقلوب والأرض إلا ما ينفع الناس .

كتب ونسخ متخصصة
فقه الأصول

صحيح أن العولمة تؤثر في المجالات الاقتصادية والسياسية والصناعية والتقنية لكن لن تستطيع التأثير في مسألة الثقافة المرتبطة بالثقافة الذاتية للفرد ولجماعته أي في هوية الفرد والجماعة .

من هنا رأينا وسمعنا الصيحات العالمية التي تتشبث بالهوية وترفض العولمة إن كانت العولمة تناقض وتصادم الهوية ، من ذلك مثلاً :

ـ تفرض الحكومة الفرنسية علىٰ قنوات التلفزيون الفرنسي أن يخصص (٦٠٪) من برامجه للإنتاج الأوربي ، وذلك كيلا يطغى عليه ويهيمن الإنتاج الأمريكي!!

ـ عارض الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك قيام مطعم (ماكدونالد) والذي يقدم الوجبات الأمريكية ، مبرراً ذلك : لكي يبقى برج (إيفيل) منفرداً بنمط العيش الفرنسي!!

ـ شنّ وزير الثقافة الفرنسي حملة على أمريكا في اجتماع اليونسكو بالمكسيك ، قال فيها : إني أستغرب أن تكون الدول التي علمت الشعوب قدراً كبيراً من الحرية ودعت إلى الثورة على الطغيان ، هي التي تحاول أن تفرض ثقافة شمولية وحيدة علىٰ العالم أجمع!! ثم قال : إن هذا شكل من أشكال الإمبريالية المالية والفكرية لا يحتل الأراضي ، ولكن يصادر الضمائر ومناهج التفكير واختلاف أنماط العيش!!

بل حتىٰ في الولايات المتحدة الأمريكية يوجد اليوم من يحذر من مسألة العولمة ، ويبررون ذلك بأن الأمريكي بالذات سيفقد هويته بعد حين ، نتيجة تدفق الهجرة العالمية ، وهذا دليل جديد علىٰ إيمان الأفراد في كل مكان بقيمة الهوية ، خاصةً إذا كانت المسألة تتعلق بالأمور الثقافية .

إذاً : هذا التناقض الظاهري بين الهوية وبين العولمة يجب ألا يؤدي

إلىٰ مزيد من التفكك والتشرذم ، بل لا بد من التكامل بينهما ، وذلك عن طريق الاستفادة من جميع الخصوصيات التي تتمتع بها الهويات المختلفة ، ومحاولة الوفاق بين إيجابيات العولمة ، ليأخذ كل شعب من العولمة ما يوافق هويته ، لتصل كل أمة إلىٰ توافق هويتها الخاصة وبين ما يناسبها من العولمة ، وبهذا التوافق والتكامل بينهما نستطيع أن نقول : لا تناقض بين الهوية والعولمة ، إلا إذا قُصد من العولمة نسف الهوية فإن ذلك يعني : التناقض التام بينهما .

* * *

تلك بعض اللمحات حول مسألة العولمة ، ولعل الزمن المتسارع يكشف جوانب أخرى لهذه المسألة ، ليبين لنا إيجابياتها وسلبياتها أكثر ، وليتضح للجميع الحقيقة كيلا ينخدع البعض كما انخدع الكثيرون ، لأن المشكلة : أن بعض الناس ينخدعون بالأسماء البراقة ، وباللافتات المزركشة المزينة ، فلا يعود الواحد منهم يستطيع الغوص إلىٰ أعماق القضايا ، وتراه يمضي الأيام والشهور وهو يدور حول القشور ، بينما المنهج القرآني علّمنا سبر الحقائق لنصل إلىٰ النتائج ، قال الله تعالىٰ :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

فماذا عن عالمية الإسلام؟ وهل العولمة نظام بديل عن عالمية الشريعة؟ ولماذا كانت العولمة ما دام الدين الإسلامي عالمياً؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الباب الثاني وبمشيئة الله سبحانه وتعالىٰ .

* * *

الباب الثاني

عالمية الشريعة الإسلامية

الفصل الأول :

ما هي الضرورة إلىٰ عالمية الشريعة الإسلامية؟!

الفصل الثاني :

نماذج من عالمية الشريعة الإسلامية .

مدخل

في منظور الشريعة ، كل البشر عباد لله ، ذلك لأن الله الواحد هو ربّ الناس جميعاً ، لا ربّ شعب ألماني أو يهودي ، إنما هو كما قال الله تعالىٰ :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

لذلك خاطبت العقيدة العالم كله بالإيمان بالله سبحانه لا شريك له ، دون أن تحدد العقيدة الإسلامية أمةً أو شعباً أو قبيلة بشيء خاص ، إنما المسألة كما قال الله تعالىٰ :

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٦] .

كذلك توجهت الشريعة الإسلامية إلىٰ كل فرد من أفراد البشرية أنه متساوٍ مع الآخرين أمام القضاء وأمام الأخلاقيات وأمام الحقوق والواجبات ، لذلك لا يجوز للمسلم أن يعتدي على نصراني أو يهودي أو مجوسي أو كافرٍ ، بل لا يجوز له أن يعتدي حتىٰ علىٰ الحيوان ، لذلك وقف التاريخ بشكل مذهولٍ أمام الأخلاق الحربية التي حملها المسلمون ، فلا يُقتل شيخ كبير ، ولا امرأة ، ولا رهبان ، ولا طفل صغير ، ولا تُقطع شجرة ولا تُحرق ، ولا يُمثّل بالقتلىٰ ، ولا غدر ولا خيانة ، لأن البشر كلهم مكرمون . قال الله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وقال أيضاً : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

وكل الأخلاق التي طرحتها الشريعة الإسلامية لا تتجه إلىٰ المسلمين فقط ، إنما تتجاوز ذلك إلىٰ كل بني الإنسان .

وهكذا يتسع التشريع الإسلامي لجميع البشر ، وبالتالي يراعي مصلحة الفرد والجماعة معاً ، ولا يغلّب مصلحة الجماعة ـ كما في النظام الشيوعي ـ علىٰ مصلحة الفرد ، ولا يغلّب مصلحة الفرد ـ كما في النظام الرأسمالي ـ على مصلحة الجماعة .

وبهذا كله ـ وبغيره ـ كانت سمة الإسلام هي السمة العالمية وفي كل وقت وحين .

* * *

الفصل الأول

ما هي الضرورة إلى عالمية الشريعة الإسلامية؟!

إن المتأمل بما نُقل إلينا عن الوضع العام قبيل مبعث سيدنا رسول الله ﷺ ، يوقن تماماً أن العالم بأسره كان مستعداً ، بل كان بحاجة ماسة إلىٰ استقبال شريعة عالمية ، لا تحدها الحدود الجغرافية ولا غيرها .

ذلك لأن القرنين السادس والسابع للميلاد كانا كأسوأ ما عرفه التاريخ ، فالناس عبيد يقدسون سلالات تدعي الأحقية في حكم الناس من خلال أن الله أعطاهم ذلك الحق ، وما آل ساسان في فارس ، وملوك الصين ، وإمبراطوريات الرومان ، إلا نماذج عن ذلك .

وهكذا بعدت المسافة بين تعاليم السماء وبين الأرض ، فنسي الناس الخالق سبحانه وزُورت تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، وانزوىٰ كهنة الأديان بالكنائس والأديرة ، وتُرك الشعب المسكين يتخبط بين جشع أصحاب رؤوس الأموال وبين أفكار مثالية لا رصيد لها على أرض الواقع[1] .

---

(١) للتوسّع في ذلك يراجع : سيرة سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام ، الجزء الأول : ١٧ـ٣٤ ، للمؤلف .

فإمبراطورية فارس كانت تدين بالزرادشتية ، حيث قدّست أهلها النار والشمس ، وانحسر دور الدين عندهم بالمعابد فقط ، أما خارجها فهم أحرار يتبعون لذاتهم وشهواتهم .

وأما الملوك عندهم فقد أقنعوا الناس أن دماء الآلهة تجري في عروقهم ، لذلك فكل ما في البلاد أصبح ملكاً لهم ، فعاشوا حياة الترف ، بينما بقي الشعب المسكين يعاني البؤس والشقاء ، وانتشرت عادات ما أنزل الله بها من سلطان كالزواج بالمحرمات ، خاصة عند ظهور فكرة (المزدكية) التي دعت إلىٰ إباحة الأموال والنساء ! !

ومثل ذلك الإمبراطورية الرومانية : التي اختلفت الفئات فيها علىٰ حقيقة المسيح ، ولم تتفق إلا عندما طورت العقيدة إلىٰ التثليث ، وفي ذلك يقول الدكتور غوستاف لوبون : (ولقد أكرهت مصر علىٰ انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلىٰ حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن ، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات ، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد علىٰ سادتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين) .

وكان التقديس للملوك عندهم قد بلغ مبلغاً كبيراً ، فهم يسجدون للملك ، ويعتقدون أنه من سلالة الآلهة ، وكل مهمة مجلس الشيوخ تأكيد صحة ما يقول الملك ! !

من جهة أخرىٰ ارتفعت الأسعار عندهم وزادت الضرائب وانتشرت الرشوة والاستغلال الاقتصادي والاستبداد السياسي . . .

وكذلك الهند لم تكن أحسن حالاً : لقد اتخذوا آلهة ومعبودات يرفضها العقل السليم ، كالبقر ، ونهر الغانج ، وغير ذلك ، وكل فترة يزيدون تمثالاً جديداً لآلهة جديدة!!

ووصل السُّخف عندهم إلى أن عبد الرجال النساء العاريات وعبد النساء الرجال العراة!! بل وانتشرت الدعارة الجنسية بين صفوف الكهنة في المعابد!!

وأهينت المرأة إلىٰ درجة أن الرجل كان يخسر امرأته في القمار .

والكلام نفسه يقال في الوضع العام للصين .

أما الجزيرة العربية فقد تغلغل فيها اليهود ، أولئك القوم الذي حرّفوا التوراة ، وعاشوا التكالب الكبير على متع الدنيا ، سواءً كانت حلالاً أم حراماً .

وفي مكة وبعض الأماكن في الجزيرة العربية كان البعض يدينون بدين إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، لكن لم يبق من تلك الديانة إلا القليل ، وأدخلت الأصنام إلىٰ معابدهم وبيوتاتهم ، وجحدوا باليوم الآخر :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] .

لكن هذا التخبط تراه يقترب تارة من الأديان ويبتعد أخرى ، لذلك كانوا يحجون إلىٰ بيت الله الحرام ، ويفلسفون مسألة عبادة الأصنام بأنها تقربهم إلىٰ الله فقط :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] .

من جهة أخرىٰ ظهرت عادات الأخذ بالثأر ، وانتشر الزنىٰ ، وأهينت المرأة ، حتى وئدت البنات خوف العار ، وتعاملوا كثيراً بالربا . . .

إذاً :

كانت الضرورة ملحةً لمجيء المنقذ ، لا لينقذ قبيلته فقط ، ولا لينقذ أمته فقط ، بل لينقذ العالم كله ، أي لتكون شريعته هي الشريعة العالمية التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتقضي علىٰ كل الأوضاع السيئة التي سادت فترةً من الزمن ، وتعيد الناس إلىٰ جادة الصواب ، فكان ذلكم المنقذ هو سيدنا رسول الله ﷺ ، لذلك وخلال سنوات قليلة رفع لواء التوحيد فقضىٰ علىٰ الأصنام والعقائد الفاسدة ، وحوَّل العرب الذين كانوا ألعوبة في يد اليهود والرومان ، إلى سادة للدنيا ، وأخرج العباد ـ وفي كل العالم ـ من جور الحكام والسجود للدجاجلة إلىٰ عدل الإسلام ، وهكذا تلقف الناس دعوته ، لتدخل الجزيرة العربية في الدين الحنيف أفواجاً ، ثم لتدخل شعوب من هنا وهناك ، حتىٰ وصلت الأنوار الإيمانية إلىٰ كل أصقاع المعمورة ، لذلك فليس هناك مكان في العالم إلا وتسمع فيه : الله أكبر .

وهذا تفسير عالمية الرسالة ، من خلال عالمية الرسول الخاتم ﷺ ، لذلك ومنذ الأيام الأولى للرسالة ، حدّد المسار والهدف ، وذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وكذلك : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

كذلك : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وهكذا نفهم أن أسباب إرسال الرسل إلىٰ قومهم خاصة ، أنهم كانوا يحملون مهمة واحدة هي ضم الأفراد في جماعات ، وأما رسول الله العالمي فجاء بمهمة أكبر وهي ضم تلك الجماعات في أمة واحدة :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢] .

وهناك شيء آخر يتعلق بالدين الذي جاء به رسول الله ﷺ : فهو دين لا يأخذ جانباً واحداً من حياة الفرد أو الجماعة ، بل إنه يتابع مسيرة الفرد من قبل أن يستهلّ إلىٰ الدنيا ، وحتىٰ ما وراء الموت ، فهو يتدخل في جزئيات اختيار المرأة كشريكة للرجل ، ويتدخل في العلاقات العامة ـ حتىٰ الجنسية ـ بين الرجل والمرأة ، وهو يتدخل في شؤون الأسرة والدولة والأنظمة العامة وفي كل شيء ، والهدف من ذلك كله ألا يعيش الفرد حالات التخبّط والمتاهات والفراغ .

كذلك ، فهذا الدين لا يميل مع فئة الحكام ضد العبيد ، ولا مع الأغنياء ضد الفقراء ، ولا مع الرجال ضد النساء ، إنما هو مجرد عن الهوىٰ ، يراعي مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وهذه هي إحدى أسس نظامٍ يتصف بالعالمية ، وبالتالي فالميزان الذي جاء به الرسول ﷺ إذا طُبّق في أي زمان أو مكان عاشت الأمم والأفراد عيشة راضية لا تسمع فيها لاغية!!

السور المكية تصف عمّ النبي وصفاً سيئاً ، ليكون ذلك إلىٰ يوم الدين دستوراً تقرؤه الأجيال لتفهم أن القرابة ـ النسب ـ لا تعطي ميزات خاصة أبداً ، إنما المسألة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

[المسد : ١ـ٥] .

بينما في الكفة الثانية : عبدٌ من إيران ، يقطع البَيْداوات والقفار ، ليعلن إسلامه ويتمسك حقيقة بتلك التعاليم ، يقول عنه الرسول ﷺ : « سلمان منا آل البيت » وفي رواية أخرى : « لا تقولوا سلمان الفارسي ، إنما قولوا : سلمان المحمدي » هذا هو الميزان الذي يصلح لكل الأزمان والأمكنة ، فالعنوان العريض :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

لا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى . « لا فضل لعربي علىٰ أعجمي ، ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوى » وكم هو الفرق الكبير بين ميزانٍ كهذا الميزان ، وبين ما كانت عليه أمور الأمم السابقة ، . . . وما تسير عليه أمم الأرض اليوم؟ !(١) .

وهذا هو التوجيه القرآني لرسول الله ﷺ بألا يحابي أحداً للونه أو قرابته أو نسبه أو ماله أو زعامته ، إنما أن يسير علىٰ منهج محدد مضبوط ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الجاثية : ١٨] .

كذلك فالدين الذي جاء به رسول الله ﷺ هو الدين الذي يجمع بين التطلّع إلىٰ حاجات الجسد وحاجات الروح ، وهذه عالمية الرسالة ، عالمية الشريعة ، عالمية الدين حقاً .

فالنصرانية أوغلت في الحديث عن جوانب الروح ، لكنها أهملت الجوانب المتعلقة بالجسد ، على العكس من اليهودية ، لكن الإسلام العظيم جاء ديناً وسطاً ، التفت إلىٰ الجانب المادي عند الإنسان فاهتم به ، والتفت إلىٰ الجانب الروحي فاهتم به ، لذلك حرّم الإسلام الرهبانية ، وحضّ على الزواج ، واعتبر اللقمة التي يضعها الرجل في فم امرأته صدقة ، وهناك من الذنوب ذنوبٌ ليس لها كفارة بأمور تعبدية كالصلاة ونحوها ، إنما كفارتها السعي وراء لقمة العيال . وهكذا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ

---

(١) للتوسع في الحديث عن الميزان يراجع : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف : ٩١-١١٧ .

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ٩-١٠] .

وكأن الله يقول لك : إذا سمعت نداء الصلاة فاهرع إلىٰ المسجد لتؤدي ما افترضه الله عليك ، لكن إذا انتهيت من ذلك فلا تجلس في المسجد ساعات وساعات ، إنما انطلق إلىٰ الكفاح ، إلى إغناء نفسك وعيالك ، لأن الله يحب اليد العليا ويكره التسول ، وبهذا فأنت تنتقل من عبادة الصلاة في المسجد إلىٰ عبادة أخرىٰ وهي تحصيل الرزق الحلال ، وفي أي مجالات الأنشطة الاقتصادية .

وإذا نظرنا اليوم إلىٰ ما يحدث فيما تسمىٰ بلاد النور والحضارة ، سواءً كان ذلك في أمريكا أو أوروبة نرى عجباً :

هناك انتصارات مادية مذهلة ، فلقد حطّ الإنسان علىٰ سطح القمر ، ولقد اكتشف الكثير من المجرات ، واستطاع القضاء على كثير من الأمراض المستعصية ، ووفر الرفاهية الكبيرة للإنسان ، وأحدث ثورات رهيبة في مجالات وسائل الإعلام وما إلىٰ هنالك . . . لكن الإنسان هناك يعيش القلق النفسي ، ويعيش التمزّق الروحي ، ويعيش الحيرة بعد الحيرة ، ويلجأ إلىٰ الحشيش والمخدرات ، ويهبط في ممارسته الجنسية إلىٰ أدنىٰ من حيوانية الحيوان ، ويخرج بتقليعات ـ صرعات ـ عجيبة ، فلماذا ذلك كله؟!

إنه الفراغ القاتل ، والذي جاء من جرّاء الاهتمام بجانب واحد ، علىٰ حساب جانب آخر ، لذلك عندما يصل المواطن هناك إلىٰ درجات الترف دون ضوابط دينية أخلاقية عندها لا يجد للحياة أي طعم يُذكر فيُقدم علىٰ الانتحار وما إلىٰ هنالك .

أما المنهج العالمي الذي أُرسل به رسول الله الخاتم محمد ﷺ فعنده

الحل الناجع والدواء الناجح لأمراض الأمم السابقة وأمراض الأمم المعاصرة وأمراض الأمم القادمة .

وإلا : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١] .

أجل ، لقد حدد الدين الذي جاء به الرسول للناس الوظيفة الأساسية علىٰ سطح الأرض ، وهي وظيفة الخلافة في الأرض ، وبالتالي أن يعيش الجميع تحت مظلة الدين الحنيف بهدف التعارف والتعاون ، لا بهدف أن يستولي الأقوياء علىٰ الفقراء وينهبوا ثرواتهم ومقدراتهم ، ولا بهدف الظلم والاقتتال ، قال الله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وبالتالي فالبشر عند الله جميعاً مكرمون ، لا لجنس ينتمون إليه ، ولا للون يحملونه ، ولا لقوم أو عشيرة ينتسبون إليها ، إنما لأنهم بشر من سلالة آدم عليه السلام ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

كذلك ، فهذا الدين الإسلامي لا يجمع الناس علىٰ مذهب سياسي أو إيديولوجية اقتصادية وما إلىٰ هنالك ، إنما يجمع الناس علىٰ عقيدة التوحيد ، ليميز بين حزب الله الذي يحمل هذه العقيدة ، وبين حزب المعارضة له وهو حزب الشيطان ، لذلك فالمنتمون إلىٰ حزب الله لا تقف أمامهم حدود جغرافية ولا ينتمون إلىٰ أسماء وضعها الأعداء هنا وهناك إنما يصيح واحدهم :

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه إذا افتخـروا بقيـسٍ أو تميـم

ليردّ الآخر :

وأينمـا ذُكـر اسـم الله فـي بلـدٍ جعلـت أرجـاءه مـن لـبّ أوطـان

ثم يلتفت إلىٰ الآخرين ليقول لهم : أنتم أحرار فيما تعتقدون :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

لكن شريطة ألا تقفوا حاجزاً منيعاً أمام وصول نور الإسلام إلىٰ شعوبكم وأفرادكم .

* * *

وهكذا جاءت الشريعة الإسلامية لا لترقّع ما تمزّق ، بل المسألة شيء آخر ، لقد جاءت لتنسخ الشرائع كلها ، وتضع بديلاً آخر ينطبق مع التوجه الجديد ، فالأديان السابقة كانت مهمتها تنحصر بأمة ما ، كالنصرانية لأتباع المسيح عليه السلام ، واليهودية لأتباع موسىٰ عليه السلام ، أما الشريعة الخالدة العالمية فهي لجميع البشر وإلىٰ قيام الساعة .

لذا كان لابد من نسف العادات البالية وإبدالها بعادات حسنة ، تناسب الإنسان كل الإنسان ، وهذا المنهج رسمه القرآن الكريم وهو يحدد مهام النبي العالمي الخاتم ﷺ :

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وهكذا كان التركيز في العهد المكي علىٰ استئصال الأورام الخبيثة من فكر عفن وعقائد باطلة ، ليستبدلها بـ : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » فلم يأمرهم بتفصيلات المعاملات المالية أو الأمور الإدارية أو ما إلىٰ هنالك ،

إنما ركز الهدف حول إرساء العقيدة في القلوب والعقول ، ليحمل الفرد النور والخير والهداية ، وينطلق إلىٰ جميع أصقاع المعمورة بهدف نشر الفضائل والأخلاق الحميدة .

لذلك كان المجتمع ينتظر وبفارغ الصبر واحداً ينقذ الموقف المتردي ، فكان الرسول العالمي المنقذ ﷺ وكانت الشريعة الغراء العالمية ، وكان :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

عندئذ من أراده الله ليكون داعية وحامل مشعل النور ، من صحابة ومن بعدهم ، اقتنع الواحد منهم أن الكون كله ملك لله :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] .

﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

لذلك سلّم الأمر كله لله ، وسار على نهج جده الأكبر خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] .

وانضبط الكل بضوابط العدالة ، فكلٌّ مسؤول عن عمله ، ولا أحد يحمل وزر أحد . قال تعالىٰ :

﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

وبالتالي ، فالجميع يخضعون لرب واحد ، خالق كل شيء :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ

﴿ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

[الملك : ٣ـ٤] .

ويشعر العاقل ـ حتى لو كان غير مؤمن ـ أن هناك هاتفاً داخلياً يلحّ عليه باللجوء إلىٰ الله ، خاصة وقت المحن والشدائد ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[يونس : ١٢] .

لأن الشعور بالله جزء من الطبيعة البشرية . قال الله تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾

[ق : ١٦] .

هذا الاعتقاد بالخضوع لرب واحد يعتبر واحداً من الركائز التي تدل علىٰ عالمية الشريعة الإسلامية ، ومثلها مسألة الانتماء إلىٰ إنسانية واحدة ، مهما كان اللون أو الجنس أو الانتماء المذهبي . . . قال تعالىٰ :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

* * *

الفصل الثاني

نماذج من عالمية الشريعة الإسلامية

في الكتب السماوية السابقة حديث طويل عن مسألةٍ ذات أهمية ، ألا وهي بشارات الله للأمم السابقة بأن نبياً يأتي في آخر الزمان ، ويحمل معه كتاباً سماوياً خاتماً للكتب السماوية ، فإن عاش منكم أحد ـ يا أهل الكتب السابقة ـ إلىٰ حين مبعثه ، فما عليكم إلا الطاعة والسمع له ، فهو النبي الخاتم ، وهو النبي العالمي لكل الأفراد والأمم ، من ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر :

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ : فالذي يقطع به من كتاب الله وسنة رسوله من حيث المعنىٰ أن رسول الله قد بشرت به الأنبياء قبله ، وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك ولكن أكثرهم يكتمون ذلك ويخفونه ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[الأعراف : ١٥٧ـ١٥٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ [هود : ١٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس : ٧٠] .

فذكر تعالىٰ بعثته إلىٰ الأميين وأهل الكتاب وسائر الخلق من عربهم وعجمهم ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له ، قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار »[١] .

وفي الصحيحين : « أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ، وفيهما : بعثت إلىٰ الأسود والأحمر قبل العرب والعجم »[٢] . وقيل : إلىٰ الإنس والجن ، والصحيح أعم من ذلك[٣] .

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٢٤٠) .

(٢) صحيح البخاري : ٦/ ٤٦٢ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٨٨٩) ، سنن الترمذي : رقمه (٢٧٧٥) .

(٣) للتوسع يراجع البداية والنهاية : ٦/ ١٣٤ .

وهكذا تتالت البشارات بهذا النبي العالمي ﷺ ، من ذلك ما جاء في التوراة التي بلغها موسىٰ عليه السلام :

جاء في سفر الميعاد : أن موسىٰ عليه السلام خطب في بني إسرائيل في آخر عمره ، وذكّرهم بأيام الله وأياديه عليهم وإحسانه إليهم وقال لهم فيما قال : واعلموا أن الله سيبعث لكم نبياً من أقاربكم مثلما أرسلني إليكم يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث فمن عصاه فله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة .

وجاء في صحف أشعيا ـ في معاتبته لبني إسرائيل ـ : فإني أبعث إليكم وإلىٰ الأمم نبياً أميّاً ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخّاب في الأسواق ، أصدره لكل جميل وأحبب له كل خلق كريم ، ثم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوىٰ في ضميره والحكمة مقولته والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والهدىٰ ملته والإسلام دينه والقرآن كتابه ، أحمد اسمه أهدىٰ به الضلالة وأرفع به بعد الخمالة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين القلوب المختلفة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، قرابينهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، رهباناً بالليل ، ليوثاً بالنهار .

وفي السفر الأول من التوراة : إن ولد إسماعيل تكون يده علىٰ كل الأمم ، وكل الأمم تحت يده وبجميع مساكن إخوته يسكن .

أجل ، فقد أرسل الله سبحانه الأنبياء من قبل ، وأخبر كل واحدٍ بضرورة تصديق رسالة آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ ، وأعطاهم دليلاً علىٰ صدقه شهادته وإقراره بكل الرسالات السابقة للأنبياء من قبله ، لذلك أُرسل كل واحد منهم إلىٰ قبيلة هنا أو شعب هناك .

وقد يكون ـ والله العالم ـ سبب ذلك : أن الشعوب وقتئذٍ كانت معزولة عن بعضها ، فكانت كل رسالة تأتي لتحسّن وتكمّل الرسالات

السابقة ، حتى كانت الرسالة الخاتمة فتكون عالميةً بكل ما فيها :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

[المائدة : ٣] .

وكان الرسول العالمي دعوة أبيه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وذلك عندما كان يبني مع ابنه إسماعيل البيت الحرام ، رفع يديه قائلاً :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وكان الرسول العالمي بشارة أخيه عيسىٰ عليه السلام ، ففي الإنجيل يقول عيسى لأتباعه : إني مرتق إلىٰ صفات العلىٰ ، ومرسل إليكم (الفارقليط = وهو محمد ﷺ) روح الحق يعلمكم كل شيء .

وصدّق القرآن ذلك : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

أما كيف ركز القرآن على مسألة عالميته ، فنرى ذلك واضحاً في خطابات الله في القرآن ، كان الحديث والخطاب عاماً ، فمثلاً نرى كثيراً من الآيات تخاطب بكلمة ﴿يا أيها الناس﴾ لتدلنا علىٰ عالمية الرسالة القرآنية ، قال تعالىٰ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

[الإسراء : ١٠٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾

[الأعراف : ١٥٨] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ :

يقول تعالىٰ لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ . أي إلى جميع الخلائق من المكلفين ، كقوله تعالىٰ :

﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار .

قال محمد بن كعب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ يعني إلىٰ الناس عامة ، وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله تعالىٰ محمداً ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله تبارك وتعالىٰ أطوعهم لله عز وجل .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إن الله تعالىٰ فضّل محمداً ﷺ علىٰ أهل السماء وعلى الأنبياء! قالوا : يا بن عباس فبم فضله علىٰ الأنبياء؟ قال : إن الله تعالىٰ قال :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

فأرسله إلى الجن والإنس[1] . أيضاً قوله تعالىٰ :

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥/ ٥٥٣ .

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١] .

وهناك آيات مكية ، جاء فيها الحديث العام عن طريق ذكر (الإنسان) ليدلل القرآن أن هذه الرسالة الخاتمة هي رسالة لكل الناس ، لكل إنسان ، في كل زمان وكل مكان ، وهذه هي العالمية بحد ذاتها ، من ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين : ٤ـ٥] .

وقوله أيضاً : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾

[العاديات : ٦ـ٧] .

وهناك طائفة من الآيات القرآنية ، تخاطب الناس كافة ، وذلك عن طريق الكلمات الشمولية العامة ، ككلمة (العبد والعباد) وفيه دلالة واضحة علىٰ عالمية القرآن الكريم وعالمية الرسول الخاتم ﷺ ، من ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

[فاطر : ٣٢] .

وقوله أيضاً : ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وهناك طائفة من الآيات توحي بعالمية هذه الرسالة الخاتمة ، بحيث تخاطب عامة الناس عن طريق إطلاق كلمة (بني آدم) سواءً كانوا عرباً أو أعاجم ، وأياً كان لونهم وجنسهم و . . . . ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس : ٦٠ـ٦١] .

وقوله أيضاً : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

وهناك طائفة أخرى من الآيات تدل علىٰ عالمية الرسالة ، لما فيها من خطاب عام ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٧ـ٢٩] .

وقوله أيضاً : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

وقوله أيضاً : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٦ـ١٠٧] .

وأيضاً هناك طائفة من الآيات الكثيرة والتي فيها الأدلة الواضحة على العالمية ، مثل كلمات : (البشر ، نفس ، الإنس والجن ، المشرق والمغرب ، السموات والأرض ، الأولين والآخرين ، أمة وأمم ، أهل القرى ، البرية . . .)[1] .

وهناك شيء آخر لابد من ذكره وهو :

أن الشريعة الإسلامية جاءت لتنسخ كل الشرائع التي قبلها ، فكتاب الشريعة العالمية هو القرآن الكريم ، وهو المعجزة الخالدة ، والذي يتجدد مع تجدد الأيام والدهور ، وكم حاول المستشرقون والأعداء الحاقدون أن يحرفوا ولو كلمة واحدة ، لكن الله سبحانه قطع على نفسه وعداً بحفظ هذا القرآن :

---

(١) للتوسع يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أو المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

لذلك فسائر معجزات الأنبياء السابقين ذهبت مع ذهاب وقتهم ، وإلا فأين عصا موسىٰ اليوم؟ وأين تكليم سليمان للحيوانات وتسخيره للريح؟ وهكذا؟

أما معجزة النبي العالمي الخاتم ﷺ فهي باقية خالدة مع خلود الزمن ، قال الإمام ابن حزم رحمه الله : نسخ عز وجل بملته كل ملة ، وألزم أهل الأرض جنهم وإنسهم اتباع شريعته التي بعث بها ، ولا يقبل من أحد سواها ، وأنه عليه السلام خاتم النبيين لا نبي بعده ، برهان ذلك ، قوله تعالىٰ :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

[الأحزاب : ٤٠] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النبوة والرسالة قد انقطعت » فجزع الناس ، فقال : « قد بقيت مبشرات وهي جزء من النبوة » .

كذلك تتضح مسألة نسخ الشريعة الإسلامية لكل ما سبقها من الشرائع في أنها جاءت لتستكمل كل ما يحتاجه الناس في دنياهم وأخراهم ، فلم تغلّب الجانب المادي على الجانب الروحي ولا العكس ، إنما :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وبالتالي كانت الشريعة السمحة التي ترفع لواء اليسر لا التعقيد ، والرخص الشرعية لا الحرج ، كما قال الله تعالىٰ :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال أيضاً : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾

[البقرة : ١٨٥] .

وقال أيضاً : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

لذلك كانت الرخص الشرعية كي تناسب كل زمان ومكان : فمن لم يجد الماء تيمم ، ومن سافر جاز له الجمع والقصر في الصلاة والإفطار في الصيام . . . وهكذا .

وفي هذا أدلة كافية علىٰ صلاحية الإسلام لكل وقت وعصر ، وهذه هي العالمية الحقّة .

وقد فصّلت كتب الأصول هذه المسألة ، حيث تقوم الشريعة على تقرير الأحكام وتفصيلاتها علىٰ القرآن الكريم فإن لم نجد ذلك فإلىٰ سنة رسول الله ﷺ . فإن لم نجد ذلك فإلى الإجماع ـ إجماع أهل الحلّ والعقد ـ ، وإلا فإلى القياس ، وإلا فإلىٰ الاستصحاب ، وإلا إلىٰ العرف ، وإلا فإلىٰ سدّ الذرائع والمصالح المرسلة والاستحسان ، وفي هذا متسع كبير لكل ما يستجد من أمور في الحياة ، سواءً كان ذلك في المجالات المالية والاقتصادية ، أو في المجالات الطبية والتشريحية والعلمية ، وما إلىٰ هنالك ، وهذه المرونة في الشريعة لهي بحق مفخرة للمسلمين أولاً ولكل من أنزل عليهم كتب سماوية ثانياً ، وللعالم بأسره ثالثاً ، لكن من الذي يلتفت إلىٰ ذلك فيحسن صنعاً؟!

* * *

أما أن الرسول ﷺ عالمي في كل أمور حياته ، بحيث يستطيع أي فرد وفي أي زمان وأي مكان أن يتبعه ليصل إلىٰ الهداية والسعادة ، فذاك أمر تؤيده النصوص المنقولة والأمور المعقولة ، فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر : ما رواه الإمام أحمد في مسنده : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أمرت بأخ يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال :

فتغير وجه رسول الله ، قال الراوي ـ وهو عبد الله بن ثابت ـ : ألا ترىٰ وجه رسول الله؟ قال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، قال : فسري عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسىٰ عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وما رواه الإمام أحمد أيضاً ، أن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنىٰ داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم وضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » .

لذلك أوضح القرآن الكريم خصوصية الرسل جميعاً لأقوامهم ، بينما الرسول الخاتم هو الرسول العالمي ، من ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ [نوح : ١] .

وقوله : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

وقوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

[آل عمران : ٤٩] .

وهكذا فكل رسول أُرسل إلى قومه ، فهو خصوصي في رسالته ودعوته إلا الرسول الخاتم ﷺ فقد كان عاماً عالمياً في دعوته ورسالته ، فخاطبه الله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

بل هو الرحمة للناس جميعاً :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

لذلك وجب اتباعه ﷺ ، فلا نبي بعده ، ولا كتاب سماوي يأتي به أحد بعد ما جاء الرسول بالقرآن الكريم ، قال تعالىٰ :

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

[آل عمران : ٨١ـ٨٥] .

وأما سبب تسمية الرسالة الإسلامية بأنها الخاتمة ، والنبي محمد ﷺ هو خاتم النبيين يعني أنه تمم الأنبياء بمجيئه ، وأنها تممت الشرائع السابقة بمجيئها ، لذلك قالوا : ختم الشيء هو بلوغ آخره ، قال تعالىٰ :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

فكانت هذه الرسالة الخاتمة جامعة بين ما صلح للأمم السابقة وأكملت ذلك بصلاح آخر يناسب الزمان والمكان ، لذلك كان فيها الصلاح المطلق والسعادة الأبدية فناسبت جميع الأمم وفي كل وقت

وحين . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقد قام الرسول ﷺ بمهمة تبليغ الدعوة العالمية خير قيام ، فهو لم يعكف في جوار الكعبة ، ولم يكتف بالدعوة في مكة المكرمة .

بل راح يوسّع رقعة دعوته ﷺ ، فأرسل الرسل إلىٰ الملوك ، حتىٰ عدّ كتّاب السيرة النبوية ذلك إلىٰ الخمسين كتاباً[1] ، من ذلك ما رواه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ : وكتب إلىٰ المقوقس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلىٰ المقوقس عظيم القبط ، سلامٌ علىٰ من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل عليه ، قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلىٰ ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك . فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خيرٌ منه . فقال حاطب : ندعوك إلىٰ دين الله ، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدَّهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارىٰ ، ولعمري ما بشارة موسىٰ بعيسىٰ إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا

---

(١) للتوسع والتفصيل في ذلك يراجع أحداث السنة السابعة للهجرة في كتاب : سيرة سيد الأنام ، للمؤلف : ٤/ ١١٧ .

إياك إلىٰ القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلىٰ الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهودٍ فيه ، ولا ينهىٰ عن مرغوبٍ فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر ، وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حُقٍّ من عاج ، وختم عليه[1] .

وهذه العالمية عند رسول الله ﷺ هي التي جعلته يهتم بتربية صحابته تربيةً صالحة ليكونوا قدوة للأمم والشعوب في كل شيء ، وقد أثبت التاريخ نجاح هذه التربية إلىٰ حد عجيب .

كيف لا ، والقرآن يناديهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

كيف لا ، والقرآن يوجههم الوجهة الصحيحة :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

كيف لا ، والقرآن يفهمهم المساواة بين الحاكم والمحكوم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

---

(١) زاد المعاد : ٣/ ٦٩١ ، ويراجع : عيون الأثر لابن سيد الناس : ٢/ ٢٦٦ ، ودلائل النبوة للبيهقي : ٤/ ٣٩٥ ، وتاريخ الطبري : ٢/ ٦٤٥ .

وهكذا انطلق الرعيل الأول إلىٰ البلاد والعباد ، لا ليقتلهم ويحرقهم ويسلب خيراتهم ويأسر رجالهم ويسبي نساءهم ، إنما كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه في مجلس يزدجرد :

إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الحكام إلىٰ عدل الإسلام .

لذلك عاش الناس من مسلمين ويهود ونصارىٰ ومجوس و . . . ، متآلفين متحابين في ظل شريعة الإسلام ، فكانت بحق هي الشريعة العالمية الخالدة :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

* * *

أما إن الإسلام عالمي في مبادئه وأنظمته ، فهذا أمر يطول البحث فيه ، ذلك لأن الباحث المنصف أنّىٰ دقق النظر في جوانب الإسلام ، سواءً كان ذلك في الأمور السياسية أو الاقتصادية أو العلاقات الدولية ، أو في العلاقات مع غير المسلمين ، أو في الجانب الأدبي ، أو في الجانب التربوي ، وصل إلىٰ حقيقة عالمية الإسلام ، وأن هذا الدين الخاتم ليس لفترة محددة ، ولا لشعب أو أمة فقط ، إنما هو دين لكل زمان ومكان ، ولنضرب بعض الأمثلة فقط : في المجال الخارجي وضع الإسلام ضوابط دقيقة لتعامله كدولة مستقلة مع الدول التي لا تدين بالإسلام ، وقد أوضحت كتب السياسة الشرعية ذلك بوضوح ، خاصة ما كتبه الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه : السياسة الشرعية .

وقسم الإسلام الناس إلى مواطنين مسلمين يعيشون ضمن الدولة

الإسلامية ، ومواطنين من غير المسلمين يعيشون ضمن الدولة الإسلامية عليهم بعض الضرائب (كالجزية) لقاء حماية المسلمين لهم ، وهناك دار الحرب وقد وضعت لها أحكام مبسوطة في أمهات كتبنا الفقهية .

وبالتالي ضبطت مسألة السلام والحرب ضمن ضوابط دقيقة مثال : لا يجوز قتل الطفل ولا الشيخ المسن ولا المرأة ولا الراهب ولا . . . ، وفي الكتب الفقهية (كالخراج لأبي يوسف) نص المعاهدات التي أجراها الحكام المسلمون لأهل الذمة .

وفي المجال الداخلي : تقوم الحكومة الإسلامية على قواعد أهمها الشورى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[الشورى : ٣٨] .

وركزت الشريعة على مسألة طاعة ولاة الأمر الذين يسيرون على النهج القويم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وكانت فترة الخلفاء الراشدين فترة منضبطة بالقواعد الشرعية لحقوق المحكوم وعلاقته بالحاكم ، لذلك كان الخليفة يتورع عن أكل أموال الشعب ، ويسير بذلك ضمن مظلة الخوف من الله عز وجل ، ووصل الفرد إلى حريته الشخصية ، وشعر بالمساواة مع أقرانه ، ومورس القضاء كأحسن ما يكون ، وبالتالي عاش الجميع في سعادة وأمن وأمان . . .

وفي المجال الاقتصادي : وقف الإسلام الموقف الوسط ، فللفرد حق التملك وللجماعة حق في التملك وكلاهما يكمل الآخر .

وقد أثبتت الوقائع التاريخية أن النظام الإسلامي هو النظام العالمي الوحيد الذي استطاع القضاء علىٰ أعتىٰ مشكلة يعاني منها الإنسان وما

زال ، وهي مشكلة الفقر ، وذلك عندما طُبقت فريضة الزكاة تطبيقاً منهجياً عادلاً[1] .

ولم يأت الإسلام بثورة ضد الأغنياء أبداً وإنما أرسىٰ قواعد التفضيل في الرزق ، لا محاباةً مع فئة ضد فئة ، إنما من باب الابتلاء :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ [النحل : ٧١] .

لكن وضع أموراً تقرّب بين الفقراء والأغنياء : كالميراث ، والزكاة ، والتبرعات ، وما إلى هنالك كذلك اهتم النظام الاقتصادي الإسلامي بمسألة العمل والعمال : فكان التشجيع للعمال علىٰ الاهتمام بعملهم ، وكانت هناك حقوق واضحة للعمال ، إضافة إلى الأجر الأخروي من الله .

ومثله كان الاهتمام بمسألة الثروة علىٰ أن تكون ذات مصدر حلال ، وأن تنفق في أوجه الحلال ، حتى إنه جعلها من الأمور التعبدية ، وهذا أمر لا يصل إليه نظام كوني أبداً ومثله مسألة الملكية ـ الفردية والجماعية ـ .

وأما من الناحية الاجتماعية : فقد اهتم الإسلام بمسألة الزواج الحلال ليغلق كل المنافذ التي تؤدي إلى الحرام ، ورغب الإسلام بالزواج ، ووجَّه الأغنياء والحاكمين على الأمر وولاة الفتيات والشباب أن يساعدوا في مسألة وضع الحلول المناسبة للزواج ، وإلا : « تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » ، وركز الإسلام على مسألة العفة والصون ، فلا انفلات ولا عرض للشهوات على قارعة الطرقات ، إنما :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) للتوسع يراجع : المسيرة التاريخية لتطبيق فريضة الزكاة (دراسة فقهية اقتصادية تاريخية) للمؤلف .

﴿خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور : ٣٠-٣١] .

لذلك وضعت قوانين دقيقة لبيت الزوجية : علاقة الأب مع الأم ، وعلاقتهما مع الأولاد ، وكل ذلك تحت مظلة : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

لذلك كان النظام الاجتماعي والتربوي الإسلامي نظاماً دقيقاً واضحاً ، عالمياً يناسب كل زمان ومكان ، ومثل ذلك نستطيع القول عن مسألة مهمة وهي التكافل والتكامل الاجتماعي بين الفرد وأسرته ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وفي ذلك أدلة واضحة على ما قلناه سابقاً : لقد سبقت عالمية الإسلام عولمة اليوم بأشواط وأشواط ، لكن العيب ليس في الشريعة الإسلامية ، إنما . . . . . !! .

* * *

الباب الثالث

العولمة أم عالمية الإسلام؟!

العولمة أم عالمية الإسلام؟!

كما رأينا في الباب الأول ، فإن العولمة تطرح نفسها كنظام عالمي جديد ، يهدف إلىٰ حلّ المشكلات ، لكن الواقع أثبت ويثبت ـ أن المسألة ليست إلا هيمنة النظام الرأسمالي الغربي الأمريكي ، وبالتالي بعد انهيار القطب الثاني وهو النظام الاشتراكي فالمستفيد الوحيد من ذلك هو الرأسمالية الأمريكية ، أما الدول النامية والفقيرة فإنها ستزيد غرقاً في المشاكل .

أجل فالعالم اليوم أشبه ما يكون برجلٍ داهمه العطش واستولىٰ عليه ، فراح يلهث هنا وهناك ، فلما تراءى له الماء ـ كما ظن ـ راح يعبُّ بنهمٍ عجيب ، ولما توقّف للتنفس وجد نفسه قد ازداد عطشاً ، وكرر العملية ، والعطش يزداد ويزداد ، فأتاه من ينصحه : أو تريد أن تقضي علىٰ عطشك ـ يا مغفّل ـ بالعبّ من ماء البحر المالح؟

أجل لقد قالها الدكتور (الكسيس كاريل) يوماً ما :

إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا ، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذا أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية ، وشهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم ، وعلىٰ الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لمجتمعنا وشكلنا[1] .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول : ٣٨ . ترجمة شفيقة أسعد فريد .

وصرح وزير الخارجية الأمريكية الأسبق وهو (المستر فوستر دالاس) في كتابه (حرب أم سلام) بقوله : إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطىء في أمتنا ، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية ، فلدينا أعظم إنتاج عالمي مادي ، لكن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي ، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون أو الدبلوماسيون أو العلماء أو القنابل ، فمتى شعر الناس بالحاجة إلىٰ الاعتماد علىٰ الأشياء المادية ، فإن النتائج السيئة تصبح أمراً حتمياً .

ولذلك فمن الحمق اليوم أن تعالج المشاكل بخلق مشكلات أخرىٰ ، فنكون كالذي يقضي الدين بالدين ، أو الذي يتشفىٰ من داء بداء ، كما قال الشاعر :

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن قضاء ولكن كان غرماً على غرم!!

وكما قال آخر :

إذا استشفيت من داءٍ بداءٍ فأقتل ما أعلك ما شفاك!!

إذاً :

لا حلّ إلا في الشريعة الإسلامية ، وهذا ليس كلاماً عاطفياً ، إنما لقد جرّبه الأجداد فآتىٰ أُكله ، والعقل السليم يقول : علىٰ الإنسان أن يتناول الدواء والعلاج الذي جرّبه أناس قبله ، فاستفادوا منه ، لكن من الحمق أن نترك العلاج المجرّب لنلهث وراء دواء جديد ، عند الرأسمالية تارة ، وعند أعدائنا تارة أخرىٰ .

لكن الحل الإسلامي له شروط أهمها :

أن النظام الإسلامي يرفض الترقيع والتجزيء ، إنما يقول : أن نأخذ الإسلام كله ، أو ندعه كله ، فللقضاء على ظاهرة الفقر مثلاً ، لابد أن

يكون ذلك في مظلة مجتمع مسلم ، تقوده عقيدة الإسلام ، ويحكمه نظام الإسلام ، وتصطبغ كل أموره الاقتصادية والسياسية والثقافية والتربوية والاجتماعية بشريعة الإسلام .

أما أن يكون النظام السياسي ـ مثلاً ـ نظاماً رأسمالياً ، ثم نأتي إلىٰ النظام الإسلامي ليعالج لنا مشكلة اقتصادية ما ـ كالفقر مثلاً ـ فهذا لا يجدي نفعاً ، بل يعطي مردوداً عكسياً ، لأن الإسلام نظام عادل دقيق ، ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض ، فلا يمكن أخذ جانب وترك جانب آخر .

لذلك جاء التحذير في القرآن الكريم من الانسياق وراء طروحات قديمة حديثة ، وذلك من خلال طرح فكرة التبعيض ، أو الانتقاء فقط ، إنما المسألة في الإسلام هي رفض التجزيء والترقيع ، قال الله تعالىٰ يحذر رسوله ﷺ ـ ومَنْ بعده ـ :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

ذلك لأن الأخذ بجزء من نظام الإسلام يعني الخروج عن منطق الإسلام ، وبالتالي لا يعطي العلاج الناجع للأمراض المتجذرة في المجتمعات .

ثم أكّد القرآن الكريم علىٰ المسألة ، عندما طالب الناس بالدخول في منطقه وأسلوبه والرضوخ لجميع نواحيه ، والعمل بشرائطه كافة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

أي : ادخلوا في شرائع الإسلام جملة ، ولا تسيروا علىٰ نهج اليهود الذين قالوا : ندخل في الإسلام لكن شريطة الاحتفاظ ببعض تقاليدنا اليهودية وما إلى هنالك .

أجل ، فالإسلام يعطي الفرد حرية التملك ، ويضع قواعد لتنميتها وما إلىٰ هنالك ، ويحدد قيوداً تبعده عن الطغيان بسببها ، لكن الإسلام ـ بالمقابل ـ لم ينس مصلحة المجتمع ، لأن من صفات الشريعة التوازن والعدل ، وهنا توازن بين الفرد والمجتمع ، فالفرد يأخذ حقه ويؤدي ما عليه ، وكذلك المجتمع يأخذ حقه من الأفراد ويؤدي ما عليه تجاههم .

من هنا فإذا أردنا أخذ جانب من الإسلام ، وليكن مسألة التملك الفردي ، وتركنا الجانب الآخر ، فإننا بذلك نحاول ترقيع الرأسمالية مع الإسلام ، وهذا لا يمكن لأن الإسلام له نظرة عامة ، بينما الرأسمالية لها فلسفة أخرىٰ تناقض الإسلام .

وبهذه النظرة ـ إلى الإسلام ككل لا يتجزأ ـ نستطيع القول : إن الإسلام هو البديل ـ سابقاً ولاحقاً وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها ـ للعولمة وما إلى هنالك .

لقد أثبت التاريخ أن الإسلام عندما طُبِّقَ كله في فترة من الفترات استطاع حلّ كل المشاكل حتىٰ أعتىٰ المشاكل ـ وهي مشكلة الفقر ـ والتي عجزت الأنظمة الوضعية والإيديولوجيات الماضية والمعاصرة علىٰ الاقتراب من حلها ، وقد رأينا فشل الأنظمة الاشتراكية في ذلك ، بعد كل الوعود في إنشاء الجنة علىٰ الأرض ، فكانت النتيجة الوقوع في نار الدنيا قبل العبور إلىٰ نار الآخرة!!

أجل ، فهذه نبوءة رسول الله ﷺ ، ومنذ (١٥) خمسة عشر قرناً ، ولقد تحققت ، ولكن عندما طُبِّقَ الإسلام ، وبالتالي ففي أي زمان ومكان إذا طُبق الإسلام فإن الدواء هو الدواء ، والعلاج المجرّب موجود ، لكن أين المنطلقون إلى تقديم هذا العلاج للعالم ، ليقولوا للناس : هذا هو

الحل لمشاكلنا ، فقد جرّبه الأجداد ونجحوا ، أفلا ننطلق لتناوله مرة أخرى؟!

روىٰ البخاري عن حارثة بن وهب الخزاعي ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « تصدقوا فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها ، يقول الرجل : لو جئت بها بالأمس لقبلتها ، فأما اليوم فلا حاجة لي بها »[1] .

ويدور الزمن دورته ، ليكون عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على سدة الحكم ، فيكتب إلىٰ واليه على العراق ، وهو عبد الحميد بن عبد الرحمن : أن أخرج للناس أعطياتهم ، فكتب إليه الوالي : إني قد أخرجت للناس أعطياتهم ، وقد بقي في بيت المال مال كثير!!

فكتب إليه : أن انظر كل من ادَّان في غير سفهٍ ولا سرف ، فاقض عنه .

فكتب إليه : إني قد قضيت عنهم ، وبقي في بيت المال مال كثير!!

فكتب إليه : أن انظر كل بكر ـ عزب ـ ليس له مال ، فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه ـ أي ادفع له المهر ـ!!

فكتب إليه : إني قد زوجت كل من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال كثير!!

فكتب إليه : أن انظر من كانت عليه جزية ـ خراج ـ فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوىٰ به على عمل أرضه ، فإنا لا نريدهم لعام ولا عامين[2] .

---

(١) للتوسع يراجع : فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني : ٣/ ١٨١ .

(٢) للتوسع يراجع : عمدة القاري للعيني : ١٦/ ١٣٥ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : ٥٩ ، الأموال لأبي عبيد : ٢٥٦ ، المسيرة التاريخية لتطبيق الزكاة : ١٦/ ١٣٤ ، فصل العهد الأموي ، للمؤلف .

لكن ذلك لم يحدث إلا عندما طبق عمر بن عبد العزيز الإسلام كله : على نفسه ، وعلىٰ عائلته ، وعلىٰ أقاربه ، وعلىٰ الناس كافة ، وعندها أعلن السّير على الخط الصحيح الذي رسمه الله :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء : ٥] .

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

عندئذٍ انطلق المجتمع كله ، ليعيش عيشة راضية ، تستظل بالتعاليم السمحة :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

فكان المجتمع كما أخبر المصطفى ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » « ترى المؤمنون في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكىٰ عضو منه تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ » وهكذا حدث في عهد الفاروق عمر رضي الله عنه ، لقد وقف على منبر رسول الله ﷺ في عام الرمادة ـ عام المجاعة ـ ليقول للناس : والله الذي لا إله إلا هو ، ما أحدٌ إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو أمنعه ، وما أحد أحق به من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكنا علىٰ منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله ﷺ ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والله لئن بقيت ليأتينّ الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعىٰ مكانه ! !

وهذه الحلول للمشاكل ، لا تنحصر في الجانب الاقتصادي ، إما مثلها في جانب القضاء ، حيث بقي الفاروق عمر في عهد أبي بكر رضي الله عنهما مدةً تزيد عن السنة ، ثم تقدّم إليه باستقالته ، فسأله عن ذلك ، فقال : يا خليفة رسول الله ، وما حاجة الناس إلى قاض ، وقد أنصف كلٌّ منهم أخاه ، وأعطىٰ كل واحد منهم الآخر ماله ، لقد بقيت

أكثر من سنة ولم يأتيني متخاصمان!!

وهكذا في الجانب الأخلاقي والسياسي والأمني والثقافي والاجتماعي ، فالكل في الإسلام سواسية ، والكل يسير على النهج الإلهي الذي رسمه الله للناس ، فكانوا أمة لم تشهد الدنيا أمثالهم ، لا بشيء يميزهم عن الآخرين ، إلا بشيءٍ واحد هو تمسكهم بالشريعة الإسلامية ، ولذلك نقول : لا العولمة تحل المشاكل ولا الأنظمة في الدنيا كلها ، إنما الحل الوحيد هو بالعودة إلى الإسلام الصافي.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾

[الروم : ٤ـ٥] .

* * *

الخاتمة

بعد كل ما رأينا نستطيع القول : إن سبب نشوء العولمة في هذه الأيام هو تقصير المسلمين في تبليغ الرسالة العالمية التي كُلّفوا بنقلها إلى الآخرين!!

أجل ، فالمسلمون هم القوم الذين ناداهم القرآن الكريم :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٣-٣٥] .

وهم القوم الذين علمهم القرآن أسلوب الدعوة مع كل الناس :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

أي : يا أيها المسلمون احملوا لواء الدعوة لكن بالتعقل والحكمة والأسلوب اللين وبالموعظة الحسنة ، وجادلوا الآخرين بالطريقة الأحسن ، وتفهموا حقائق إسلامكم وانظروا إلى أسلافكم كيف نوّروا الدنيا وحضّروها؟ كيف سادوا العالم ومدّنوه؟ ثم انظروا إلىٰ وضعكم الحالي وتساءلوا : ما هو سبب ضعفكم وتشرذمكم وذلّكم وتفرقكم؟!

ولماذا تلهثون وراء شرقٍ تارة ، ووراء غرب أخرى؟! لماذا تهللون لكل ما يأتي من هناك وأمامكم الوسائل التي بها توحّد أجدادكم ، وبها تحضّروا ، وبها سادوا فعدلوا ، أمامكم القرآن الكريم وسنة النبي العظيم ، أمامكم هذا التراث الهائل ، فهلاّ عدتم إليه؟ هلاّ عكفتم على دراسته وتمحيصه؟ هلاّ أخذتم منه ما يناسب عصركم؟ هلاّ رأيتم بالبصر والبصيرة أن العولمة التي تُطرح اليوم ، وما إلىٰ هنالك من صرعات حديثة ، تحمل بريقاً ساطعاً ، وتخفي السمّ القاتل ، كل ذلك لا يحلّ مشاكلكم ، إنما يزيدها تعقيداً وضنكاً ، إنما حلّ مشاكلكم بشيء واحد ، هو العودة إلىٰ إسلامكم والتمسك والاعتصام بحبل ربكم . . . .

هل نسيتم مسؤوليتكم في تبليغ الدعوة إلىٰ الناس؟! أما قال الله لكم : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

يا أيها المسلمون : الغرب والشرق يتخبط بعد أن تطور في الأمور المادية ، لكنه أعلن إفلاسه في الأمور الروحية ، إنه ينتظر منكم حمل لواء الدعوة إلىٰ كل العالم ، فهلاّ تأسيتم بسيدنا رسول الله ﷺ ، وقد أُحيط به من كل مكان ، وقد فعلوا معه الأعاجيب ، لكنه يطلقها كلمات تقطر رحمةً وحرصاً على هداية الآخرين : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

ياأيها المسلمون : لقد فشلت الاشتراكية والرأسمالية في توحيد العالم علىٰ أمور الخير والهداية ، ولم يبق في الكون ما يوحّد الناس علىٰ الأخلاق والأنوار إلاّ دينكم ، فلمن تتركوا ذلك وتتقاعسوا؟! هل تنتظرون الحل الساحر يأتيكم عن طريق العولمة الثقافية والاقتصادية والسياسية التي تهيمن عليها أمريكا وإسرائيل؟!

أبداً ، فالحلّ أن تطرحوا الإسلام علىٰ بساط الواقع ، نظام عالمي يوحد الناس بالتوحيد والعقيدة والقرآن الواحد والرسول الخاتم والنظام الإسلامي الخالد الجامع المناسب لكل عصر ومكان ، وإذا قصّرتم في هذه المهمة العظيمة ، ماذا سيحدث؟!

أجاب القرآن على ذلك : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨] .

إن تتركوا لواء الدعوة إلىٰ الله ، وتبليغ الرسالة الخاتمة إلى الناس ، يأتي الله بقوم من أمم شتى ، لا تعرفون أهم من بلاد فارس أم من أوروبة أم من أمريكا أم إفريقية ، المهم أنهم يحملون صفةً تركتموها أنتم وهي تبليغ الرسالة للعالمين ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ .

نسأل الله أن ينور قلوبنا بنور الشريعة الإسلامية ، وأن يجعلنا خدماً لنشر تعاليم هذا الدين الحنيف ، وأن يجعل في أقوالنا وأعمالنا الإخلاص كله ، وأن يكتب حسنات هذا العمل في صحائف كل من له حقٌّ علينا ، إنه علىٰ ما يشاء قدير .

وبعد : تلك لمحات سريعة عن الصرعة الحديثة التي تسمىٰ العولمة ، وقد قارنا وبشكل سريع بينها وبين عالمية الشريعة الإسلامية ، فإن قاربنا الهدف فذلك فضل من الله ، وإلا فمن طبيعة الإنسان النسيان ، لكن عزاؤنا : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المصادر والمراجع

ـ العولمة ، محمد سعيد أبو زعرور ، ط١ ١٩٩٨ ، دار البيارق ، عمّان .

ـ العولمة (ندوة) : جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بطرابلس ، ليبيا ، عُقدت في ٤٦/٤/١٩٩٨.

ـ العولمة والهوية : (ندوة أكاديمية المملكة المغربية) ط١ ١٩٩٧ ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية .

ـ فخ العولمة : هانس مارتين ، ط١ ١٩٩٨م الكويت ، عالم المعرفة .

ـ عالمية الدعوة الإسلامية ، الدكتور علي عبد الحليم محمود ، ط٤ ١٩٩٢ ، دار الوفاء بمنصورة مصر .

ـ الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، الدكتور محمد عمر الحاجي ، ط١ ١٩٩٥ دار المكتبي بدمشق .

ـ إضافةً إلى بعض المقالات والأبحاث التي وردت في المجلات ، وقد ذُكرت في مكانها .

المحتوى

- من وحي التنزيل ٥
- المقدمة ٧

الباب الأول : ومضات من الحديث عن العولمة ١١
الفصل الأول : نشأتها التاريخية ١٣
الفصل الثاني : مفهوم العولمة ١٦
الفصل الثالث : أنواع العولمة ٢٠
الفصل الرابع : أهدافها ، واقعها ، آثارها ، والتحديات الناتجة عنها ٣٢
الفصل الخامس : تناقض العولمة مع الهوية!! ٤٩

الباب الثاني : عالمية الشريعة الإسلامية ٥٣
الفصل الأول : ما هي الضرورة إلى عالمية الشريعة الإسلامية ؟! ... ٥٧
الفصل الثاني : نماذج من عالمية الشريعة الإسلامية ٦٨

الباب الثالث : العولمة أم عالمية الإسلام ؟! ٨٥
- الخاتمة ٩٥
- المصادر والمراجع ٩٩
- المحتوى ١٠١

* * *